وأزهرت شجرة الليمون

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ،لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف.

الطبعة الأولى

٢٠٢١م

المملكة الاردنية الهاشمية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٢١/٣/١٩٧١

٨١٩,٩
الخثلان : جواهر محمد
عنوان الكتاب: وأزهرت شجرة الليمون
اسم المؤلف : جواهر محمد الخثلان
عمان: دار الجنان للنشر والتوزيع ٢٠٢١
الواصفات: النصوص الادبية//الادب العربي//العصر الحديث/
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن راي دائرة المكتبة الوطنية او أي جهة حكومية اخرى.

ISBN ٩٧٨ - ٩٩٢٣ -٣٥ - ٠٤٣ - ٠ (ردمك)

دار الجنان للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان – العبدلي – شارع الملك حسين

هاتف: ٠٠٩٦٢٧٩٥٧٤٧٤٦٠

E-mail: dar_ jenan@yahoo.com

وأزهرت شجرة الليمون

مجموعة قصصية

جواهر بنت محمد الخثلان

بسم الله الرحمن الرحيم

وأزهرت شجرة الليمون

هيفاء فتاةٌ في ربيعِها الثاني والعشرين، تبدو كفراشةٍ بيضاء رشيقة الحركة، تعلُو شفتيها ابتسامةٌ ساحرة، عيناها شقراوان بلونِ قهوة عربية براقةٌ جميلة، ولها نظرةٌ عميقةٌ وجذابةٌ، خطواتها عزفٌ منفردٌ على أوتار الأرض، عذبةٌ كالماء، نقيةٌ كالسحاب، حضورها أخّاذ، وغيابها مؤثرٌ رغم حداثة سنّها، أحلامها تشبه الغمام في عُلوها وجمالها، طموحاتها تعانقُ إصرارها على أن تكون، فكان النبوغ والتميز لها عنوانًا.

اعتادت حين عودتها ظهرًا أن تتفقدَ حديقة منزلهم الصغيرة، فتسقي هذه، وتقطف تلك، وتجتث بعض النباتات المتطفلةِ، وتعود لتلامس شجرة الليمون الصغيرة، تراقبها وتفرح بمراحل النموّ الجديدة فيها، ثم تسرع لوالدتها، فتحضنها وتقبلها، وتحكي لها بعضًا من تفاصيلِ يومها الجامعي، وهي تدورُ حول والدتها، وتمدّ يدها؛ لتخطف قطعة من سلطةٍ في إناء أُعدَّ للغداء، أو تفتح الثلاجة، وتتناول منها ما تأكلهُ على عجالة وهي تتحدّث، ثم تصْعد لغرفتها؛ لتبدل

ملابسها، وتعود مجدّدا لاستكمال ما حفظته في تلافيفِ ذاكرتها من أحداثٍ على مائدةِ الطعام، حتى يضطر معها شقيقها عادل إلى التدخل؛ لإسكاتها متعمدًا استفزازها ومازحتها، إذ اعتادا على مشاكسةِ بعضيهما مُزاحا، فعادلٌ أقرب لها من نبضِ وريدها، فقد كبُرا معا رغم أنه يسبقها بعامين إلا أن الناظر إليهما يظنّ أنهما توأمان؛ لتقاربهما شكلًا ومضمونًا.

وفي ذاتِ مساءٍ عادت هيفاء على غيرِ عادتها متوَعكة تشعر بالصداع، وصعَدت إلى غرفتها بهدوء دون أن تمارس طقُوس الإزعاج اليومية كما أسماها عادل.

لمحتْ والدة هيفاء تضاريس توعك على تقاسيم وجه هيفاء فبادرتها:

- هل أنت متعبة يا هيفاء؟

- فردت هيفاء بهدوء: نعم شيء من صداعٍ وغثيان.

- تركت والدتها ما كان في يدها، وأقبلت إليها تتحسّس جبينها، وهي تُتمتم: لا بأس، لعلك تعرضت للهواء البارد أو...

ولم تدعها هيفاء تكمل، وقاطعتها: قد يكون، واستطردت: أمّي! ليس لي حاجة في الأكل، فقط أريد قسطًا من الراحة، واستدارتْ عائدة لغرفتها، وهي تشعر برجفةٍ غريبةٍ تسري في جسدها أوعزتها للحمّى التي تهاجم أوصالها، سألَ عادل والدته عن هيفاء وهو ينظر لمقعدها الخالي ويُمازحها.

- أين ابنتك سليطَة اللسان؟ الهدوء يعمّ أرجاء المنزل في غيابها!

- ردت والدته -وهي تسحبُ نفَسا عميقًا، وكأنّ همًا كبيرًا يجثُم على صدرها:

هيفاء ليست على ما يُرام، يبدو أنها متعبة قليلًا، ودخلت غرفتها لتنام، وأكملا تناول طعامهما، وصمتٌ مهيب يطبق على المكانِ، لم يقطعه إلّا صوت خطواتِ عادل مغادرًا إلى غرفته لتبقى والدتهُ تنقر بملعقةٍ في يدها على طاولة الطعام، ثم تنهَض فجأة، وكأنّ هاتفًا يهتف داخلها: اذهبي لغرفة هيفاء!

تقدمت بهدوءٍ، ووضعت يدها على مقبض الباب؛ لتفتحه دون أن تتسبّب في إزعاجٍ لابنتها، وتطلّ بجزءٍ من جسدها،

فإذا بها تشاهد هيفاء، وقد احمرّ وجهها، وتسَارع نَفَسها، وتهذي بكلماتٍ غير مفهومة؛ لتدفع والدتها الباب، وتُسرع لها، وتمدّ يدها فتمسك كفها وجبينها، وإذا بحرارتها مرتفعة جدّا، والفتاة ما زالت تتمسك بغطاء، وكأنما تنشد الدفء!.

- هيفاء هيفاء حبيبتي ماذا بك؟ تناديها والدتها، فلا تجيب.

- تركت يدها، وأسرعت تنادي: عادل يا عادل أسرع.

- في لحظةٍ واحدة انقلبَ هدوء المنزل إلى ضجيج وحركة، تمددّت بعدها هيفاء في المقعد الخلفي للسيارةِ تتكئ برأسها المحموم على صدرِ والدتها اللاهثِ؛ خوفًا، وتنطلق سيارة عادل بسرعة نحو المستشفى، وتتلقفها أيدي الممرضات على عجل، إذْ لم يعد يصدر عنها أنين أو ردات فعل، فقد دخلت في غيبوبة عميقة، وتُستكمل فحوصاتها، وتُنقل بسرعة إلى غرفة العناية الفائقة، وتُمنع عنها الزيارة؛ لتنهار والدتها، وتنخرط في نحيبٍ موجع، يحاول معه عادل أن يحتوي حزنها، ويخففُ من لوعتها بضمها ومواساتها، وإقناعها أن لا خطر يهدّد حياة هيفاء، ويجب عليها مغادرة المستشفى، فلا فائدة من بقائها.

وهنا بدأت مرحلة من الهمّ تتمدّد في قلب أمّ يكاد فؤادها يفرغ؛ هلعًا على ابنتها، كان عادل يمسك بيدها تارةً بكلتا يديه يساعدها على النهوض عن مقعد تهاوت عليه مفجوعة من تسارع الأحداث، وتارات يعود ليحضنها ويقبل يديها، ويتوسل إليها بصوت مرتجف تبدو فيه نبرة بكاء، يحاول أن يكتمها.

- أمي..! هيفاء بخير، ولكن لا فائدة من بقائك هنا، هيّا للمنزل يا أمي، وفي المساء نعود و... فتقاطعه بذهول، وعيناها تنظران إليه شاردتين دون تركيز.

- عادل هيفاء هنا، هيفاء لا تسمعني، هيفاء، وتعود لتئنّ بحرقة.

- أمي، أعدك أني سأعود بك مساءً، فقط هيّا معي؛ لترتاحي قليلًا.

- وتُقبل إحدى الممرضات ذات السحْنة الآسيوية، وتتحدث بلغة عربية مكسرة، ماما إن شاء الله كله تمام، وتمسك بيدها تساعدها على النهوض، فتستجيب لها دون وعي، وتقوم معها تسندها، وهي تسير حتى وصلت سيارة عادل.

فأجلسها مقعدها، وانطلق بها للمنزل الذي ما إن ولجته إلا شعرت، وكأنه منزل مهجور منذ عقود! فالهدوء يعمّ المكان، وكأنما اتّشح بالحزن، فبَدا رماديًا دون لون!

تقدمت إلى حيث تركت طاولة الطعام، وبقايا الأكل الذي لم تتناوله هيفاء، ما زال في مكانه، ومكانها فارغ، ممّا جعل الأم تتقدم نحوه ببطء، وتجلسُ فيه، وتنكبّ برأسها على مائدة الطعام باكية؛ ليتدخل عادل قائلا:

أمي، اذهبي لغرفتك، خذي قسطًا من الراحة حتى نعود في المساء للمستشفى، وأخذ يقوم بجمع الأطباق، ونقلها للمطبخ في حركة سريعة؛ ليعود بعدها إلى غرفته متعبًا يشعر بالغثيان من شدة خوفه على شقيقته.

وتمضي الساعات ووالدة هيفاء لا تدري إلى أين تذهب؟! ولا أين تقف؟! فهي في حركة دائبةٍ، يشوبها القلق والتوتر حتى حانَ المساء ليخرج إليها عادل الذي لم يذق طعم النوم ولا الراحة هو الآخر.

- أمي هل نذهب؟!

- ودون إجابة منها سارت أمامه وقلبها يسبقها كطير حبيس يكاد يخرج من صدرها، ويطير حيث ترقد هيفاء، تودّ لو

تزيد من سرعة السيارة، وتُبعد من أمامها من سائرين، وأفكار مختلفة تعصف برأسها.

هل استيقظت هيفاء؟

أتراها تفتح ذراعيها لها؛ لتحضنها بعمق، وتقبلها كما عودتها كل ظهيرة وفي المساء قبل أن تنام؟

هل تناولت الطعام؟ وهل وهل وهل؟.

أسئلة تُلح على عقلها، تودّ لو أن يفتح لها نافذة لتقرأ إجابتها قبل أن تصل ما لهذا الطريق لا ينتهي؟

ألقت بالسؤال بتضجر، والتفت عليها عادل مطمئنا: أمي اهدئي الطريق هو نفسه، ولكنك أنت لست نفسك! اطمئني هيفاء بخير إن شاء الله.

وحتى يقطع عليها الطريق سألها بشكل مفاجئ أمي الجامعة!

التفتتْ إليه وقبل أن يكمل أجابت: ليست مهمة، المهم أن تتعافى هيفاء.

أمي ولكن مستقبلها، لِمَ لا تتصلين بإحدى صديقاتها و.... عادل، هيفاء مريضة و.. واختنق صوتها بعبرة أليمة، لم يسعفها للتخفيف من ألمها إلا نشيج موجع، وغرِق عادل في

صمت رهيب، ضغط معه بقَدمِه على دوّاسة البنزين؛ ليزيد من سرعته؛ للوصول إلى المستشفى حيث ترقد هيفاء بلا حراك!

دلَفا باب المستشفى، وركضت والدته وكأنما تسير مبرمجة نحو غرفة العناية الفائقة؛ لتعترضها إحدى الممرضات قائلة:

- ممنوع يا ماما.

- هيفاء هنا، هيفاء، وهي تحاول بيدها أن تبعد الممرضة عن باب الغرفة، ويتقدم عادل، ويمسك والدته من كتفيها، ويتحدث للمرضة.

- هل بالإمكان رؤية المريضة إنها والدتها؟

- لا يمكن، ممنوع، وبإمكانكم مشاهدتها من خلف زجاج النافذة، وأشارت بيدها نحو نافذةٍ زجاجية كبيرة لا تفتح!.

- وساعد والدته للتوجه للنافذة، وقد سبقتهما الممرضة للداخل؛ لتشير إلى السرير الذي ترقد فيه هيفاء.

- تلمست الأم زجاج النافذة بحنان، وهي تبكي، وكأنما تتحسس وجه ابنتها، كانت تودّ لو أنها قريبة؛ لتضمّها وتقبلها ولكن...

- وحين لحظ عادل ألم والدته احتضنها وجرّها للخلف وهو يقول:

دعينا نذهب للطبيب نسأل عن حالتها، ودون مقاومة استجابت له الأم، وما زال نشيجها يُسمع في الممر. وبينما هما يسيران إذْ لمح عادل الطبيب المباشر، وأسرع نحوه.

- دكتور هلّا طمأنتني على هيفاء!

- حالتها حرجة لديها حُمّى، وتحتاج إلى علاج مكثف بالمضادات، بإذن الله تتحسن وربّت على كتف عادل مواسيًا ومضى.

- استدارت الأم ببطء وتقدمت بخطوات مرتبكة نحو (اللاشيء) لا تدري إلى أين؟! لولا أن أخذ بيدها عادل متجها بها إلى الباب.

- تمضي الأيام والليالي وهيفاء ترقد في المستشفى دون حراك.

- ووالدتها تقضي جلّ وقتها في منزلها، تدلف لهذه الغرفة لتخرج منها لغيرها حتى يستقر بها المقام في غرفة هيفاء، فتقف تتأمل رسمة كوب لم تكتمل، وهناك كتاب أُغلق مقلوبًا، ومجموعة أقلام رُصَّت بعناية، أرفف، عليها

اكسسوارت ناعمة، تبدو عليها لمسات أنثى أنيقة، تنفض الغبار عنها ثمّ تخرج؛ لتتفقد حديقتها التي نسقتها هيفاء ورتبت تفاصيلها، فهذه شجيرة ورد، وتلك ليمونة شابها شيء من الذبول، أتراها تفتقد هيفاء فاصفرت أوراقها، وذبلت؟!

- هنا طائر كان يصدح بأعذب الألحان، فتجيبه هيفاء بالصفير.

- وهنا حشائش استطالت لم تجد من يجزّها، وذات أصيل خرجت أم هيفاء للحديقة الصغيرة تنفث أنفاسًا، وتسحب أخرى في تململٍ وضيق، تتلمّس الشجيرات، وتتمتم بدعوات أن تعود هيفاء.

كان في عقلها الباطن هاجس يطرقه بإلحاح، لا تعلم نوعه، ولا مُبتدأه، وتخشى منتهاه، زاد توترها فانعكس ذلك على حركتها جيئةً وذهابًا، حتى استقرّ بها المقام أمام شجرة الليمون، وجثت على الأرض تتحسس ساق الشجرة بيدٍ مرتعشة، ولمحت زهرة بيضاء صغيرة للتو، أطلقت بَتلاتها تستقبل الحياة، أطالت النّظر إليها بحب، وحدثتها بصوت

تخنقه العبرة، ستعود هيفاء بإذن الله؛ لتراكِ، ونهضت عائدة؛ لتستعد لموعد زيارة هيفاء.

- ما إن أقبل عادل ووالدته على غرفة العناية المركزة إلا وتستقبلهم الممرضة بوجه بشوش وابتسامة لطيفة، وتبادرهم بعربتها المكسرة (ماما هيفاء اليوم كويس) كان وقع العبارة على الأم مفاجئًا وكبيرًا.

- كويس؟؟ الحمد لله، ولم تتركها؛ لتكمل عبارتها، واندفعت نحو الغرفة إلا أن الممرضة أسرعت، واعترضتها وهي تمسك بها.

- انتظري الدكتور موجود بالداخل.

- حاول عادل أن يدخل إلا أن الممرضة حالت دونه، وبقي هو ووالدته يراقبان الدكتور، ومعه إحدى الممرضات يكمل فحص هيفاء، وبعد مُضي قليل من الوقت خرج لهم، ووجهه متهلّل بالبشر.

- مرحبا دكتور كيف حالها الآن؟!

- سأله عادل.

- أجابه : الحمد لله هيفاء تخطت المرحلة الحرجة، ولكنها ما زالت في حاجة إلى عناية طبية.

- وقاطعته والدتها، هل يمكنني الدخول إليها؟!
- لا، ليس الآن، الأفضل أن تؤجلي ذلك إلى الغد.
- ولكن يا دكتور، فقاطعها، وقد رفع يده في علامة للرفض.
- رؤيتها لكم قد يؤثر فيها، دعوها للغد وبإذن الله سترونها في أحسن حال، وألقى عليهما التحية، وغادر.
- اقتربت الأم حتى ألصقت وجهها بزجاج النافذة، تشاهد هيفاء، وهي تُتمتم بالحمد والشكر، ودموعها تتساقط فرحا وخوفا ووقف عادل ممسك بكتفي والدته، ويُؤمّن على دعائها.
- وعادا للمنزل.

- صباح اليوم كان مختلفًا جدًا تشعر، وكأن البيت يستعد استقبال العيد، رغم عدم وجود مظاهر تدلّ على ذلك، ولكن القلوب حين تفرح تتجمّل لها الدنيا دون أدوات زينة.

- شجرة الليمون هي الأخرى تزينت بزهور بيضاء صغيرة، تنشر عبيرها في كل الأرجاء، وقفت أمامها والدة هيفاء،

تتحسس براعمها الغضّة، وتوشوشها بتمتمات أقرب للهمس.

- هيفاء ستعود لكِ قريبًا.

- وتمضي بهم الأيام حتى كان يوم عودة هيفاء بعد تعافيها، تدخل باب المنزل ووالدتها تكاد تحملها، وأضلاع صدرها تكاد ترقص فرحًا على وقع نبضات قلبها السعيد، عادت لحضن الأم واحتواء الأخ وزهور الليمون وترتيب الكتب.

- عادت؛ لتشاطر أمها وشقيقها رحلة الحياة الجميلة، فعائلتها هي الملاذ بعد الله.

اكتفيت بأمي

متعلق بوالدته، يحادثها كثيرًا، يشبهها كثيرًا حتى في ملامحها الجميلة التي لم تشفع لها؛ لأنها تعيش حياة سعيدة مع زوجها، فما تكاد أطياف خلاف تغادر إلا وعاصفة هوجاء، تحط في ساحة استقرارها الأسري، فتحيله إعصارًا مدمرًا من الملاسنة والخناق الذي لا يهدأ إلا والدموع قد حفرت أخاديدا على وجنتيها.

تحب طفلها بشكل جنوني، هو ملاذها في ليالي الانكسار والدموع، تحتضنه في عزلتها الليلية، دموعها تخالط قسمات وجهه البريء حتى أصبح نقطة ضعفها في أي خلاف بينها وبين زوجها الذي يهددها أن يجعلها ترحل دونه، استحالت الحياة معه، وتعسرت كل حلول التناغم والانسجام، فلا صراخ يهدأ، ولا استقرار يحل، حتى حانت لحظة غاب فيها العقل، وأُغلقت منافذ بصيص الأمل، وكان الانفصال النهائي بعد أن زادت حدة الخلافات، وأمام مرأى الطفل الذي لم يكن يدرك شيئًا سوى حبه لأمه، فهي عالمه بكل تفاصيله، وحلّ الغياب، ومعه غابت كل مظاهر السعادة،

حتى وإن ظهر عكس ذلك لكلا الطرفين، ادّعاء السعادة وَهَمّ تعايش معه كلاهما، حتى استحالت الحياة بينهما، انكفأت سعاد على نفسها، لا ترى غير صغيرها ترعاه، تهتم لأمره تضاحكه، وتلامسه، ويعتصرها الوجع حد الإنهاك حين مرضه، تفكر به، وتفكر له، لم يعد يعنيها في دنياها سواه، فهو عينها التي تبصر بها، وقلبها النابض في جوفها، وروحها المتسللة في أعماقها، حرصت على دراسته وتعليمه الذي لم يبدع فيه، بل كان من ذوي المستوى المتوسط، يقبع في المنطقة الباردة بين المتفوقين والبلداء، لكنه لم يكن غبيًّا، فتتجاوزه الأحداث، فهو يحكي لها حين يعود من مدرسته أدق تفاصيل يومه الدراسي، فكانت تدعم فيه قدراته؛ ليفوق أقرانه، وتساعده في واجباته، نشأ فارس في كنف والدته خجولًا اتكاليًا رغم ذكاءه الاجتماعي وفراسته إلا أنه لم يكن قادرًا أبدا على صنع علاقات جيدة بمحيطه، مكتفيًا بوالدته، فهي جامعته ومجتمعه، وفي رسالة إلى نفسه (أني اكتفيت بأمي)، ترعرع في حضنها، يستمد دفئه وطاقته منها، فأصبحا صديقين، وكأنما يعيشان عالمًا افتراضيًا خاصًا بهما، كانت تحاوره، وتسمع أمنياته..

- أمي أود لو أكون طائرًا محلقًا في السماء

- طائر يا فارس!

- نعم طائر، وأحملك معي يا أمي أينما ذهبت، سأحملك يا أمي إلى أماكن جميلة، سترين الأرض من الأعلى يا أمي، إنها واسعة كما تعلمنا في المدرسة، فتمسح على رأسه مبتسمة، وقلبها يقفز فرحًا بأحلامه الإعجازية، وكثيرًا ما كتب أحرف اسمها واسمه مزينة برسومات لقلوب ونجوم صغيرة في قصاصات ورق، يحتفظ بهما في حقيبته المدرسية.

- وتستمر بهما الحياة، ويجتاز جزءًا كبيرًا من مراحله الدراسية، حتى طرق ذات مساء باب هدوئهما زائر ثقيل، حلّ كضيف مملّ على جسد سعاد ينهشه، ويقلب سكينة قلبها هلعًا على فارس، إذ أصبحت طريحة فراش، لا تقوى على مكابدة وحش كاسر، أنشب براثنه في جوفها ـ يقتات صحتها وقوتها، وبدأ شبح الخوف يجثم على قلب فارس، وهو يرى عالمه متمثلًا في أمه، ينهار شيئًا فشيئًا، يرقب حركتها الضعيفة، وأنينها يطوي ليله سهادًا قبل أن يغادرها ذات صباح رمادي كئيب لمدرسته، كان يعلق ناظريه في قسماتها، كأنه يرسمها في أعماقه، يطيل النظر إليها، يود أن

يمنحها قوته ونضارته، وزادت غربته الداخلية وانعزاله عن محيطه المدرسي، لا سيما بعض المستهينين بالمشاعر من أقرانه جعلوا منه مادة دسمة لطرفاتهم وتندرهم، وقلدوه وسام (الموسوس)

عاد ذات ظهيرة، ودهش من وجود عدد من قريباته في منزلهم، علم أن الخطب جلل من نظراتهن وتمتماتهن.

ألقى كتبه، دار حول نفسه حاول أن يصرخ خذلته حنجرته، واستعصت عليه الدموع؛ ليسقط دون حراك، لم يفقد وعيه، ولكنه لا يعي ما يدور حوله.

ذهول دون ردة فعل، تساعده على تجاوز صدمة وفاة أمه، هام على وجهه، وهو بينهم، لا يشعر بهم، تطويه الأيام، ويطوي الليالي، ولا جديد سوى حزن، يتجدد وتساؤل مرير، من أين لي بقلب، يحتمل وجع الفقد يا أمي، يحادث نفسه داخليا به، وتمضي به الأيام، وصراع داخلي يدكّ ما تبقى من عقله، من أنا؟ وإلى أين؟ ولماذا أنا؟! حاول المقربون من عائلته أن يعيدوا له توازنه، ولكنهم عجزوا، أهمل نفسه رغم إدراكه خطأ ذلك وخطورته، نظراته تلبسها حزن دفين أطفأ بريقها، تقوقع على نفسه، وهذيان يتدفق

من لسانه بلغة مستعصية لا تُفهم، حاول أن ينتفض وينفض ما علق بروحه من حزن، ولكنها الـذكرى الموجعـة تضـرب استقراره النفسي بقسوة حين يرى وجه والدته في كل شـيء أمامه، يخيل إليه أنه يسمعها، فلا يلبث أن يصرخ: أمـي، ولا مجيب سوى ضحكات من أقرانه وتمتمات خوف وحزن مـن نساء عائلته، وذات أصيل اكتسى بضـوء شـفق أحمـر، يـأذن بغروب شمس يومه تكوّم فارس على قارعة الطريـق، وبـدا كأنه ينتظر أحدهم، يلتفت يمنة ويسرة دون تركيز، تقدم إليـه رجل من معارفه؛ ليتحدث إليه وشيئًا فشيئًا تجمهـر حولهمـا عدد من فتية الحيّ، طرح الرجل سؤالًا مباغتًا علـى فـارس، هل تنتظر أحدًا يا فارس؟ ولكنْ فارس لم يجبـه، واسـتمر في ذهوله والتفاتاته، مدّ الرجل يده، وربت علـى كتفـه مناديًـا: فارس، فارس، أبعد فارسٌ يـدَ الرجـل بشـيء مـن العنـف، ونظر إليه بعينين غائرتين خـاليتين مـن التعـبير، وفـتح فمـه ليتحدث آآآ، وفجأة صرخ أحد الفتيـة المتجمهـرين: اهربـوا من المجنـون، وعلـت الضـحكات والصـراخ والـركض مـن البقية، فكان هذا التصرف كفيلًـا باسـتفزاز فـارس، وفي ردة فعل عكسية غرق في موجة من الضحك المتواصل، مما جعل

من الرجل الممسك به يحاول أن يهدئ من انفعاله، فإذا بآخر يتدخل بتساؤل غريب، لا علاقة له بالحال، حينما نطق قائلًا: (هل أمسى المجنون أكثر حكمة؟)؛ لتعبر هذه الجملة إلى أذن فارس، فتستقر في قلبه، فيستكين ويهدأ، ويفلت نفسه من الرجل؛ ليبحث عن مكان مناسب، يجلس فيه، غادره الرجلان بعد حديث لم يطُلْ بينهما؛ ليجد نفسه وحيدًا يجترُّ عبارة الرجل، يقلبها في عقله، هل المجنون أكثر حكمة؟ هم يرون أني مجنون؟ ما الجنون؟ أن تتوغل لا إراديا في حزنك ضرب من الجنون،! لست مجنونًا أنا فقط أحب أمي، أفتقد أمي، أشتاق إلى أمي، كفكفَ دمعه، ونهض يسيرًا، لا يدري إلى أين تحمله قدماه، وفي أذنيه بقايا من قهقهات من كانوا رفاقه، ودويّ لا يسمعه غيره، المجنون أكثر حكمة؛ ليكتشف أنه دون وعي يقف بجانب سور مقبرة قديمة، تحتضن رفات والدته، حاول أن يدلف إليها، فعجزت أقدامه أن تحمله أكثر، وتهاوى، أمي لست مجنونًا، هل تذكرين يا أمي أني وعدتك ذات لحظة أني سأكون طائرًا يحملك إلى أي مكان تشائين؟ لن أخلف وعدي لك يا أمي، وتسللت يده إلى جيبه؛ ليخرج قصاصة ورق مهترئة، خط

عليها اسم والدته واسمه في قلبين متجاورين، أطال النظر إليها، وقرّبها من شفتيه، وطبع قبلة عميقة على اسم والدته، وأجهش في بكاء يشبه الأنين، لم يمنعه سوى صوت رخيم يرتفع؛ لينادي لصلاة المغرب، فيقف فارس ينفض ما علق به من غبار وبقايا من دموع، ويلتفت إلى حيث ترقد والدته، ويقول: لست مجنونًا يا أمي، سأحملك يا أمي في عقلي المدرك ما حييت، ورفع كفيه إلى السماء ربِّ اغفر لأمي.

وانطلق نحو المسجد، أعين كثيرة ترقبه، وهناك من يفسح له الطريق؛ خوفًا منه، يصلي بكل خشوع وعلامات تعجب تعلو هامات المصلين، مجنون يصلي؟ هذا ما علِق في أذهان الناس عن فارس، واستمرت به الحياة ما بين كتاب وكتاب، حتى حانت لحظة مغادرته بلده بداعي إكمال الدراسة، حمل حقيبته بيده، واستعد لركوب سيارة كانت في انتظاره، اقترب منها وقبل أن يهم بالركوب التفت كأنما يرسم تفاصيل بلده في ذاكرته، وأرسل نظرة استودع فيها كل معاني الحب للأرض التي تضم رفاتها، وانطلقت به السيارة، فألقى رأسه للخلف وأغمض عينيه، ويده تقبض على تلك القصاصة المهترئة، فهي ما تبقى له من والدته.

انهمك فارس في دراسته، وتناسى كل ما يربطه بماضيه عدا ذكرى والدته، تلك الذكرى التي أحكمت سيطرتها على قدراته للتواصل الإنساني، إذ ما زال يعاني عدم تمكنه من بناء علاقات جيدة، فاكتفى بالحدّ الأدنى من التعامل الضروري مع محيطه.

تخرج فارس، ورفض أن يعود لبلده، وبحث عن عمل يبقيه بعيدا، وكأنما يهرب من واقعه؛ لتمضي به السنون، فتبدو شعيرات بيضاء، تشق طريقها إلى شعره، وما زال يصارع وحدته، ومعها حنينه للوطن وخوفه من العودة، وذات صباح وبلا مقدمات قرر أن يعود!

وعاد بخصلة بيضاء أكثر وضوحًا مما سبق ونظارة سميكة.

عاد يتفحص الوجوه يبحث عن ذكرياته وعن أقرانه، يبحث عن مكان ترك فيه قطعة من فؤاده، عاد؛ ليجثو على ركبتيه أمام حائط أصم وحركة في شارع مجاور، لا تهتم لأمره، عاد وقد ولى الشباب، وغابت المعارف، وتغيرت تضاريس أرضه، حلّ عليه ظلام ليل دامس؛ لينهض فيعود من حيث أتى، فقد كسره الحزن حتى عجز أن يجبر كسره، فما لمجنون بقاء.

غياب فعودة

تحمله أقدامه إلى حيث لا يعلم يتخبط كأنما قد فقد عقله.
يحمل نفسه يقودها في دروب الحياة.
تتخطفه الملذات أحيانا ويغوص في بحر لجيّ من الألم أحايين كثيرة تائه إلا من دلالة ربانية، تشرق في أقسى مواضع الألم، فتضيء جنبات روحه بقبس من نور، يأخذه إلى حيث مرافئ الأمان ..
بعد فقدانه لزوجته وابنته الصغيرة لم يعد كما كان.
فأصبح يفتقد التوازن بعد أن كان يعيش السعادة المفرطة لم يخطر في باله لحظة أن يعود وحيدًا إلا من ألم.
كسيرًا إلا من جرح غائر لا يندمل.
لم يكن يتوقع وهو يمتطي صهوة مركبته مبتسما على ثرثرة غير مفهومة من ثغر صغيرته التي أبت إلا أن تجلس في حضنه تعبث بكل ما تقع عليه يداها الصغيرتان لم يتوقع وهو ينتظر زوجته الحنون أن تغلق الباب للمرة الأخيرة، وكأنها تنهي مسيرة الحياة برفقته، تجاذبا أطراف الحديث وخططا للمستقبل البعيد، وطالت بهم المسافة في رحلة

العودة إلى ديار الأهل والأصحاب، وساد الصمت، نامت الصغيرة بعد أن أخذتها والدتها في حضنها التي ألقت هي الأخرى برأسها إلى الخلف، وتسللت إليها غفوة، طرحت جفنيها رغما عنها.

وبقي عبد الرحمن يقاوم النعاس تارة يلتفت على عائلته الصغيرة، وتارة يشرب ماء من قارورة، اتكأت بجانبه، وتارات يحدق في الطريق الذي لا يبدو أنه سينتهي.

لم يستيقظ عبد الرحمن إلا في اليوم التالي، فوجد نفسه محاطًا بجمع لا يعرفهم، استغرق لحظات؛ ليستوعب أين هو؟ ثم نادى بصوت واهن ضعيف: لين ... لين ... وعاد ليغمض عينيه، وكأنه يطرد بقايا أضغاث حلم..

يتكرر النداء هذه المرة لزوجته نورة.... نورة ....

يقترب منه أحد الأطباء، يمسح على رأسه، ويمسك يده بحنان، ويبتسم له الحمد لله على سلامتك ...

آآآه الآن علم أنه لم يكن حلمًا، بل واقعًا مريرًا.

لم أكن أحلم !! أين عائلتي؟

اهدأ .. هم بخير!

وتستمر أطول لحظات بشعة في حياته.
حتى أتاه اليقين: لقد رحلوا.
لم يعد في ذاكرة عبد الرحمن لحظة أقسى من تلك اللحظة.
لحظة قاسية تكاد تفتك بقلبه وتفتت كبده حزنا ولوعة.
عاش حياته بعدهم وحيدا يحيط به كثيرون!
تعيسا يتحلق حوله السعداء!
كثيرا ما طالبوه بالضحك فيضحك بلا هوية ولا معنى!
لا شيء يلوح في أفق حياته كأنما الليل لا يعقبه نهار.
ولعبة ما زالت تقبع في زاوية من أريكة، اعتادت زوجته أن تلاعب طفلتها عليها.
يطيل النظر إليها وتخنقه عبرات يعلو بها صدره، ويهبط فلا يدري إلى أين يذهب؟ وإلى من يذهب؟
(موجعة آلام الفقد)
عبد الرحمن يدخل في نفق الكآبة طواعية إذ لا أحد.
شرود .. هذيان .. ووحدة قاتلة.
وذات وقت سمع نداء يأتيه من بعيد كان قد غفل عنه.
نهض فجأة وشعر بأن همًّا كبيرا لا بد وأن يسقط ولن يسقطه بالضربة القاضية إلا أن يجيب النداء.

دخل المسجد، وقد عزم على الابتهال إلى الله أن يهدي قلبه، وينزع الحزن من أعماقه.

صلى، كأن لم يصل من قبل تتابعت دموعه، وبكى إلى أن خرج من الصلاة، وهو يعاهد نفسه على أن لا عودة للحزن، ومعي الله.

حلم سارة

سارة طفلة في الثامنة من عمرها.

نشأت في بيئة بسيطة.

والدتها سيدة لم تحظ بتعليم عالٍ, فقد اكتفت بالمرحلة المتوسطة، وتفرغت للزوج والبيت والأبناء..

كانت سارة شخصية تميل للهدوء.

ملازمة لوالدتها, تتحدث معها بما يشبه الهمس, لا تناقش ولا تعبّر!

لم تكن تلعب مع قريناتها بقدر ما كانت تحب أن تستمع لكل ما يقال, وتراقب ما يدور حولها!

اعتادت والدتها أن تلتقي بصويحباتها صباحًا ومساءً, يتحدثن في كل شيء وأمام الصغار, غير مباليات بما يمكن أن يؤثر في عقولهم!

سارة منصتة جيّدة.. تشدها بعض المواضيع, نظراتها تجول بدهشة بين شفاه النساء!

والدتها ورفيقاتها سادرات في أحاديثهن المتنوعة، يتذمرن تارة، ويتضاحكن أخرى.

أصبح عقل سارة وعاءً لما يُسكب فيه!
تكبر سارة وأحاديث المجالس تزورها في منامها، فما بين أساطير لا يصدقها عقل, إلى منازل جيرانهم، وما يحدث فيها!
أصبح عقل سارة بيئة خصبة لما سيزرع فيه.
ذات مساء التصقت سارة بجانب والدتها, وأطلقت كل حواسها لتلَقّي ما سينفضّ عنه مجلس السيدات!
تحدثن في كل شيء.. حتى الكوابيس المريعة.. واتخذت كل واحدة منهنّ متكئا تلوك القصة تلو القصة, والرعب الذي كاد يقتلها في سريرها، والخرافات التي أقضت مضاجعهنّ، وصغيرتنا تستمع، وترى بكل حواسها، وقلبها يرجف كريشة في مهب الريح.
اختزل عقلها كل ما سمعته, وشكّله لها في صورة وحش كاسر, يداهم النائم, ويحيله إلى كومة من بقايا إنسان!
لازمها الخوف، فأصبحت من الضعف بمكان، فلا تستطيع أن تسير في طريق مظلم، حتى وإن كان في منزلها.
لم تعد تقدر على النوم، حتى تبث والدتها الطمأنينة في فؤادها.

وفي ليلة وبعد عناء نامت سارة وعمّ الهدوء في أرجاء منزلهم, وما كانت تعلم أن زائرًا بشعًا من أحلامها يتربص بها؛ لتنام!

رأت نفسها في عالم لا تعرفه هائمة على وجهها, في طرقات بعيدة, تسير وتتعثر، فتنهض لتسقط مرات ومرات، حتى تبدل ضوء النهار بظلمة الليل.

فلا ترى غير أعين كثيرة تراقبها، وغير أيدٍ تحاول أن تمسك بها، وجوه بشعة، لم ترها من قبل، وأصواتا تصمّ الآذان.

نهضت سارة من فراشها، تصرخ بكلمات غير مفهومة، وتنتفض تدور حول نفسها.

ركضت والدتها، ولحق بها والدها، أمسكا بها، حاولا تهدئتها، ولكن سارة ما زالت ترى ما لا يرونه!

اتسعت حدقتا عينيها حدّ الجحوظ، وتسارعت نبضات قلبها، وتعرّقت، ثم فقدت الوعي.

أُسقط في يد والدتها فأخذت تهزها بقوة!

وهي تصرخ، ووالدها لا يدري كيف يفعل.

وهكذا يمرّ الوقت، حتى استعادت سارة وعيها.

لكن ما عادت سارة هي سارة, أصبحت فارغة من كل شيء, إلا ما يمليه عليها عقلها الممتلئ بما كانت تسمعه من أحاديث وخزعبلات وخرافات صويحبات والدتها!

تهذي بها ليل نهار, لا تعي ما يقال لها، ولا تستجيب لما يحدث أمامها.

فقدت سارة عقلها بحلم.

ذات الضفائر القرمزية

تراها في تقلبات موج غاضب لا تهتم لما قد يحدث، وأحيانا في مروج اللافندر تسابق فراشات بيضاء, لها عينان براقتان تحكي بهما قصص خيالية، لا يعيشها سواها، خفيفة يكاد يحملها الهواء لترتفع تشاهد العالم أسفلها، وثقيلة لا تحتملها الأرض التي تدرج عليها، تقابلك بابتسامة غامضة، سحر ينقلك إلى عالم غريب قسماتها خليط من متناقضات، تحمل بين جنباتها روح ككتاب فلسفة ما يفهم منه مستحيل، هي حكاية فصولها لا رابط بينها سوى اسم بطلها.

فتاتنا تعشق المستحيل في صراع مميت مع نفسها التي لا تهدأ.

تحترف البحث عن غرائب الأشياء، وتدس أنفها بين دفات الكتب، وترمق بعينها ما يحدث في الفضاء تارة، وفي الأرض تارات، دلفت غرفة تضم قطعًا من أثاث، وأرفف صفت عليها كتب، أغلبها مهترئ، يعلوه الغبار، حدقت بعينيها في كتاب لا ترى منه إلا خلفه، استدار الكتاب بما يشبه الصرير، وبدت قسماته ذات حزن وناداها:

- هيه إلام تنظرين؟
فغرت فاها دهشة كتاب يتحدث؟
واستطرد قبل أن تعي ما يدور حولها.
- أعياني البقاء هنا، وأتلف الغبار وريقاتي فهلّا أحظى بمساعدتك؟
وبوجل مزق هدوء نفسها، امتدت يدها المرتجفة إليه، وسحبته من الرف، وحين استقر بين كفيها نفض نفسه، وتنهد بعمق، وقال لها بصوت يشبه حفيف أوراق الشجر: شكرًا لك وبدت لها كأنه يبتسم.
سرت في جسدها قشعريرة لا تدري سرها.
أخوف هو أم سعادة أن وجدتْ من يحادثها، حاولت أن تتحدث، واستعصى عليها النطق، وإذا به ينطق مجددًا : أتمانعين من مرافقتي إياك خارج هذه الغرفة؟
- وبالكاد ردت: لا
- حسنا هيا بنا.
حملت الكتاب بحذر وخوف وفرح مشاعر مضطربة ومتناقضة، ولكن هذا ما يناسبها، وخرجت نحو حديقة فيها كثير من شجر، واستقر بها المقام تحت إحداها، تتفيأ ظلالها جلوسًا.

احتارت كيف تبقي هذا الكتاب؟ أتمسكه بين يديها، أم تبقيه على الأرض، وتحادثه؟!

وقبل أن تقرر قفز من بين راحتيها، واحتلّ مكانًا، يقابلها وجها لوجه.

حدقت فيه وأسئلة كثيرة تعصف برأسها؟

هل يتلبس الجانّ الكتب؟

كيف ينطق؟

وفيما هي تفكر، إذ به يعود للحديث.

- هل جربت السفر خارج حدود العقل؟ صعقت من هول السؤال!

ماذا تقصد بخارج حدود العقل يا هذا؟

- أعني هل سافرت دون عقل إلى أماكن لن تريها أبدًا؟

- مثل ماذا؟

- داخل رأسك مثلًا؟

- داخل رأسي, هل أنت مجنون؟

- لا، لست مجنونًا، ولكني كحقيبة مسافر في أيدي الآخرين، أحمل عنهم عبء ما لا يستطيعون عليه، وما لا يطيقونه.

- ماذا تعني؟ وقبل أن يسترسل في حديثه هبت نسائم باردة، قلبت صفحاته جيئة وذهابًا، وتدخلت هي لتمنع الفوضى، وفيما هي تحاول أن تعيد صفحاته؛ ليكمل حديثه إذ بيد باردة تمسكها من الخلف، وتهزها: هيه أجننت يا فتاة؟

- رفعت رأسها: من؟ أمي؟

- ماذا تفعلين هنا؟ وكيف لا تجيبين على النداء؟

- أي نداء يا أمي؟

- هل أنت متعبة؟

وتجس جبينها بيدها، تتحقق من درجة حرارتها، وتمسك بيدها لتدخلا معًا إلى المنزل، فتسحب كفها الصغيرة، وتنطلق؛ لتعيد الكتاب إلى مكانه، وقبل أن تستدير عائدة استوقفها سؤاله:

- هل سأراك غدًا؛ لنكمل حديثنا؟

أومأت براسها موافقة، وغادرت.

لم تنم ذات الضفائر، وتقلبت طويلًا في فراشها، تفكر في كتابها، وتتخيل قسماته وملامحه المنهكة بفعل التقادم والغبار، وكيف له أن يفكر؟

هل تتحدث الكتب؟

وفي اليوم التالي تسللت بخفة حافية القدمين إلى حيث وضعته، وما إن اقتربت منه إلا أتاها صوت عميق وهامس؛ ليطرح سؤالًا آخر، وكأن حديثهما لم ينقطع ليلة كاملة.

- هل سافرت عبر الزمن؟ يا لهذا الكتاب العجوز كيف يفكر؟ وإلى أين يريد أن يصل؟ اتكأت بظهرها على جدار مقابل، وعقدت يديها على صدرها، وفاجأته بالسؤال:

- كيف لك أن تسافر عبر الزمن؟!

- كان ينتظر سؤالها، وقد سبر أغوار نفسها، وانتفض ونفض وريقاته المصفرة حتى تطاير بعض الغبار، وقال بصوت عميق:

- تستطيعين السفر الآن إلى حقب زمنية صنع بها التاريخ سفر للماضي و...، وقبل أن يستطرد قاطعته في دهشة الآن؟، وعاد لحماسته الطفولية وهو ينظر إليها مستمتعا بدهشتها، وقال:

- نعم الآن حين تتناولين أحد هذه العقول التي رصت على الرف، وأُهملت!

- عقول! عن أي شيء تتحدث يا هذا؟
- نعم إنها عقول أسلافكم حين استجلبوا أثمن ما لديهم، وكنزوها في وريقات، ترونها مجرد وريقات، وتجاهلتم أن وريقاتنا أقوى من قلوبكم، فأنتم تودعون فيها تصوركم المستقبلي وماضيكم وآلامكم وأحلامكم، ووو، وبدأت نبرة صوته العميق تخبو وتضعف، حتى كان أن يصمت، وتمتم: أنا لا أثق بكم، فعلاقتكم بنا وقتية برهة من الزمن، تتقاذفنا الأيدي، ثم ماذا؟ نختنق تحت أطنان من الغبار.
- أنت تتحدث عن الكتب؟ كنت أنتظرك أن تحدثني كيف أسافر عبر الزمن؟
- الكتاب يا صغيرتي سفينتك لخوض عباب سفر طويل متنوع سريع، تعبرين القارات، وأنت في مكانك تزورين الماضي، وتنطلقين منه للمستقبل ووسيلتك الكتاب .. قطع حديثه بشكل مفاجئ، وقال:
- هييه هل لديك أصدقاء؟
تجاهلت سؤاله، ولم ينتظر جوابها، وغرقا في صمت رهيب، كانت تنظر إليه، ولا تنظر إليه غارقة في عباب تساؤل عميق، كيف لهذا أن يتحدث؟

ألستُ أنا من يهذي؟ لعلي فقدت عقلي! وراودتها نفسها أن تلتقطه، وتنزع وريقاته المهترئة، وتذروها للرياح، وبينما هي سادرة في وساوسها انكفأ الكتاب، وسقط أرضًا، وتطايرت ذرات الغبار من حوله، تقدمت إليه ببطء شديد، وجلست على قدميها، تحدق به، هل ترفعه وتنفض الغبار عنه؟ أو تتركه، وتنهض لشأنها، شعرت للحظة أنها مرتبطة بهذا الكتاب، لا تريد أن تتركه، فقد تحدث إليها أكثر من أي شخص آخر، وأشرع لها نوافذ فسيحة من الأمل والجمال، أهوت بيدها إليه، ترفعه، ودون تحفظ أو حذر ضمته إلى صدرها، كأنه طفلها الصغير.

أمومة في غير موعدها، فذات الضفائر القرمزية ما زالت تدرج في سنوات الصبا، وبين جنباتها قلب طفلة غض، .. أي علاقة تربطني بهذا؟ تسأل نفسها، وهي تقدم الكتاب من صدرها أمام عينيها، وتهزه، لِمَ تصمت الآن؟! تحدث إليّ !! كنتَ تسألني عن الأصدقاء سأخبرك.

- تعودتُ أن أكون وحيدة، يكفي أن يكون لك تجربة واحدة فاشلة؛ لتتقدم إلى قلبك، وتطلب منه الكف عن العبث رغم استماتة العقل في تغيير القناعات، غيرك يراني بضفائري صغيرة، لا تدرك.

هم لا يأبهون لما قد يمليه عليّ عقلي الذي قد يدفعني إلى الخروج على المألوف، صمتت برهة تنتظر تعليقًا منه، وهو لا يزال يتوسد كفيها في وداعة.

- هيه لماذا لا تعبأ بي؟ هل أنت مثلهم؟ سأمزقك إربا.

اضطربت مشاعرها، وبدأ تشنج عضلي يعمل بعنف في أناملها، وهي تمسك بالكتاب، وتضغط بقوة، وكأنها تعاقبه على فشلها وسوء اختيارها.

جثت على ركبتيها، وخفضت رأسها في تقلب عجيب، وعادت؛ لتضم الكتاب، وسقطت من عينها دمعة.

انفصام

تجاوز الأربعين من عمره، نحيل الجسم، حاد النظرات، له ذقن، لا يهتم به كما هي الحال مع شعر رأسه، ملامحه شرقية، لونه برونزي بفعل الشمس، يعيش وحيدًا في منزل يقبع في زاوية، شارع ضيق خافت الإضاءة، المنازل فيه متراصة ذات ابواب خشبية قديمة.

يلملم ما تبعثر من نفسه، يرسل عقله إلى داخله ينظر بريبة هل يمكنني الخروج؟ يسير بتؤدة وبطء، يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى.

يقف بالباب مائلا نحو الأمام يسترق النظر للعابرين، يتقدم، يقف.

وحين يلحظ طيفًا قادمًا يتراجع للخلف متوجسا خيفة، لا يجرؤ على مخالطة الآخرين، لكنه متحدث بارع مع نفسه يغوص فيها يناقشها يلاطفها حينا، ويؤنبها أحايين.

- أووه ما لهؤلاء لا يتوقفون عن المسير جيئة وذهابا؟ يحدث نفسه، وكأنه يمتلك حق السماح لهم بالعبور! عاد ليسترق النظر من النصف المشرع من الباب الخشبي.

تقدم قليلًا وهو لا يزال ممسكا بطرف الباب، وكأنما يستمد منه الشجاعة والإقدام.

- آآه الطريق سالكة سأخرج، أخرج جسده كله، وسحب الباب من خلفه؛ ليغلقه، وتحرك ليتوسط الشارع وسار إلى حيث تحمله أقدامه، يدير نظره في كل شيء تقع عليه عينه، مبان وشجيرات وسيارات وواجهات المتاجر وعربات مختلفة الأحجام، قدِم شخص من بعيد، وركز سالم نظره عليه، وهو يقترب رويدًا رويدًا، وبدت قشعريرة خفيفة تسري في جسده، ويتوقف ليلتفت للخلف يبحث عن الباب، هل يعود أدراجه؟ ولكن الشخص اقترب منه أكثر، وتجمد سالم في موقفه دون حراك، واكتفى بأنفاس متسارعة لاهثة، يترقب ماذا سيحل به. تجاوزه الشخص دون مبالاة، واستدار سالم لمتابعته بهلع.

- إذن ليس إياه! همس لنفسه، واجترّ نفسًا عميقًا، كأنما يتنفس الصعداء، وسحب قدميه العالقتين في الأرض، ومسح حبات من عرق تكاد أن تتدحرج من جبينه، وأكمل مسيره بشيء من الارتباك.

- هؤلاء الحمقى لا يدعون أحدًا في شأنه! وأكمل سيره بخطوات متعثرة، متجهًا إلى بيت شقيقته التي لا تبعد عن مسكنه كثيرًا، وقبل أن يصل إلى وجهته لفت نظره سيارة متوقفة، نوافذها مفتوحة، وتقدم إليها، دار حولها، مدّ يده وفتح الباب الخلفي، وصعد إليها، وأغلق الباب خلفه، وأخذ يعبث في محتوياتها، ألقى ما بها من علب ومناديل ورق وأغراض شخصية لصاحبها، وما زال يعبث حتى انتبه على صوت أحدهم يصرخ: المجنون في السيارة، فترجل منها، ووقف يهذي بكلام غير مفهوم، وينفض يديه مما علق بها من غبار، وأكمل سيره حتى وصل باب شقيقته، وأخذ يركل الباب بقدمه حتى قدم أحدهم، وفتح له الباب.

- هيه منال أين أنت؟

- انطلقت اخته نحوه مرحبة به بصوت مرتبك وحركة يشوبها كثير من التوتر والقلق، فهي تدرك جيدا حالة شقيقها ووفاة والدتها ألًما وحسرة على ما آل إليه حاله وموقف زوجها المتشدد منه، إذ ما زالت عبارة الطبيب الذي أشرف على حالته إثر حالة هيجان ألمت بسالم تطرق سمعه حين قال (المريض يعاني حالة انفصام وهو بحاجة ماسة لأن يبقى تحت الملاحظة فإهماله قد يؤدي إلى مشاكل

كبيرة له وللمحيطين ففي أي لحظة من الممكن أن يكون خطرا كبيرا إذ لديه سلوك حركي عدواني وخطير...).

- استقبلته شقيقته بألم وقادته نحو متكأ له وقالت:

- أهلا بك يا سالم كيف حالك؟ فأجابها بسؤال: ألديكِ شيء آكله، فأنا أشعر بالجوع.

- نعم، سآتيك بالطعام، ولكن لا تغادر مكانك أبدًا، ابقَ هنا، وما كادت تغادره حتى قام واقفًا يريد اللحاق بها إلا أن وجود طفلها ذي السنتين في إحدى زوايا الغرفة أثار انتباهه، فتوجه إليه وكانت ابنة شقيقته ذات السنوات العشر تراقبه عن بعد، وحين لحظت توجهه إلى أخيها صرخت: أمي، سالم سيضرب أحمد، وما كادت تطلق هذه الصرخة إلا ووالدها يركض نحوه مزمجرًا هائجًا، يدفعه نحو الباب، أُخرج لا نريد مجانين هنا، وأغلق الباب دونه دون مقاومة تذكر منه، وعاد الزوج ليكمل صراخه على زوجته مؤنبًا لها، ومذكرًا إياها أن شقيقها معتوه، ولا يمكن التنبؤ بما يفعل، وسالم ما زال يطرق الباب حتى يئس، وعاد أدراجه يحدث نفسه، ويهذي.

- هم لا يريدون أن أعيش، هم يريدون قتلي، نوال وزوجها ساحران، كان يسير على غير هدى حتى قادته قدماه إلى بقالة صغيرة، وحين دلف إليها فرّ منها مجموعة فتية؛ خوفا منه، وتقدم نحو ثلاجة بها، وفتحها وتناول زجاجة مياه غازية، والبائع الآسيوي يراقبه بوجل، فلا يجرؤ أن يحادثه، نزع الغطاء ودلق ما بها في جوفه مرة واحدة، ثم حذف بقوة الزجاجة نحو واجهة البقالة فتكسر زجاج الباب، وفي ردة فعل سريعة نهض البائع من مكانه؛ ليمنعه من إحداث ضرر أكثر إلا أن سالمًا كان أقرب للثلاجة، فتناول قارورة أخرى وبدلًا من أن يحذفها استلم رأس البائع، وضربه بها ضربة واحدة ألقته على الأرض، وتكسر الزجاج في يده، واجتاحته نوبة من الهياج فألقى بجسده على البائع المدد على الأرض، وأجهز عليه طعنًا بما تبقى في يده من زجاج، ولم يتركه حتى أصبح جثة هامدة، فقام مترنحًا بملابس ملطخة بالدماء، يحمل في يده ما تبقى من الزجاجة، وسار نحو الباب يضطرب في نفسه كثيرًا من المشاعر ما بين النشوة والفزع والغضب، وتكوم على عتبة الباب يخط

بالزجاجة الملطخة بالدماء تارة خطوطا متعاكسة ورسومات مبهمة، وتارة يحدق بها وكأنه يهم بالتحدث إلى قطرات الدماء عليها، ألقى بها جانبًا، وغادر المكان على غير هدى حتى قادته قدماه إلى حيث يسكن شقيقته وزوجها، وطرق الباب، وحين أُشرع بيد شقيقته هالها ما رأت، وارتفع صراخها، ماذا فعلت؟ ومن أين أتيت فأزاحها بهدوء، ودلف إلى الداخل وهو يقول (اتسخ ثوبي)، وتقدم نحو أريكة تكوّم عليها يمسح ما علق بيديه من أتربة ودماء، وقبل أن تستوعب شقيقته ما حدث إذ برجال الأمن يطوقون المنزل مطالبين بتسليم سالم، تقدم زوج شقيقته نحو الباب، وقد علق بصره في سالم في خوف وهلع وهو يتوقع ما حدث وفق مشاهدته لهيئة سالم المخيفة، دلف رجال الأمن إلى الداخل، وهو ينظر إليهم ببلاهة وبلا ردة فعل، وأمسك أحدهم بكلتا يديه المتسختين، وأحكم قيدهما، ثم أنهضه ليقوم معه بكل استسلام، وهو يتمتم بحديث غير مفهوم، غادر رجال الأمن برفقتهم سالم وعاد الزوج لزوجته التي انخرطت في بكاء مرير حين علمت أن شقيقها المريض قاتل،

هو ليس مجرمًا، بل هو مريض، نعم مريض، هـذا مـا كانـت ترددده، وزوجها ينظر إليها بأسى، ويجثو على ركبتيـه ممسـكا رأسه من هول الصدمة، لا يعي أن زوجتـه في لحظتهـا هـذه بحاجة إلى كتف قوية تتكئ عليها، وتستمد منهـا القـوة علـى الصـمود؛ لتسـدل السـتار علـى تفاصـيل مؤلمـة سـتعلق في ذاكرتها إلى الأبد.

مدائن الرماد

يَرتدِي قَميصهُ المُهترئَ، ولمْ يُغلقْ أزرارهُ فبدَا صدرهُ الأسمرُ، وقدْ لوّحتهُ الشمسُ، وتحدّرت حباتٌ من العرقِ، فألصقتْ خصلاتٍ منْ شعرهِ المسترسلِ على جبينهِ .

ينظرُ للشمسِ نظرتهُ العميقَة ويقرّرُ أنْ يزاحمَ حدّتها بصلابتهِ ويسير.

تركَ خلفهُ إرثًا كبيرًا من الذكرياتِ، لا يودُ أن يحمِلها فتثقلُ كاهلهُ.

يدْلفُ مدينةَ الحُلمِ بخُطًا وئيدةٍ ومتمهلةٍ، يبحثُ عن لا شيء ولكنهُ يسيرُ.

يلتفتُ يمنةً ويسرةً، يُمرّرُ بصرهُ بجدرانٍ رماديةٍ كئيبةٍ، خلْفها كمٌ مهولٌ من الأسرارِ.

حلمُ فتاةٍ، وأنينُ كهلٍ، وقهقةُ طفلٍ، وحطامُ شابٍّ! يسيرُ تارةً يدهُ في جيبِ بنطالهِ، وتارةً يتفقدُ بها قلبهُ، وكأنّما يَخشى عليهِ من السقوطِ، يركلُ حجارةً تعترضُ طريقهُ يُطأطئُ رأسهُ تارةً، ويرفعهُ أخرى ويزفر!

إلى أينَ يا هذا؟

ودون وعيٍ قادتهُ قدماهُ إلى مقرِّ عملهِ، يتوقفُ أمامَ البابِ مُتردِّدًا!

هلْ يدخلُ على هذا المديرِ الأشيبِ المتغطرسِ؟

أو يعودُ أدراجهُ؟

هو يعلمُ أنهُ لنْ يخرجَ بفائدةٍ، فقرارُ هذا الرجلِ الشرسِ نافذٌ!

يقتحمُ البابَ، ويقفُ منتصبًا أمامَ رجلٍ، تجاوزَ الستين من عُمرهِ، قدْ انحسرَ شعرُ رأسهِ عن صلعٍ، يحيطُ بهِ شعرٌ لؤلؤيٌّ أشيبُ، يرتديْ نظارةً سميكةً على طرفِ أنفهِ الضخمِ، فرفعَ رأسهُ ينظرُ للواقفِ أمامهُ بعينينِ ضيّقتينِ، ثمّ ألقى قلمًا كانَ يكتبُ بهِ، وأعادَ نفسهُ للمقعدِ الذي كانَ يتكوّمُ عليهِ وبهدوءٍ وعمقٍ سألهُ:

- نعمْ، ماذا تريدُ يا هذا؟

- أريدُ العودةَ إلى عملي.

- ليسَ لدينا عملٌ للكسالى المُتهورين.

- كسالى! لستُ كسلانَ، ولم أكنْ متخاذلًا يومًا، ولكن إدارتكُم في العملِ هي من تجعلُ مني لا مُباليا إلا بمَا أقتنعُ به.

- قناعاتكَ احتفظْ بها لنفسكَ، نحنُ هنا في شركةٍ، لا يَعنيها ما تفكرُ بهِ، نبحثُ فقط عن الإنتاجيةِ.

- بل تبحثونَ عن الكمِّ، وليسَ الكيفَ أنتم آآآ ...

- اخرجْ منْ هنا أيّها الفاشلُ، واستدارَ؛ ليضغطَ على زرٍّ؛ ليستدعيَ الأمنَ!

- لماذا لا تريدُ أنْ تسمعَني يا رجُل، أنا لستُ مُهملًا، أنا لديّ رؤيتي وأسلوبي أحتاجُ إلى فرصةٍ؛ لأثبتَ لكَ أنني...

وقبلَ أن يتمّ جملتهُ دَلَفَ للمكتبِ رجلان ضخمان، وأمسكا بكتفيهِ يأمرانهُ بالخروجِ دون ضجةٍ.

أنزلَ أيديهُما عنْ كتفهِ بقوةٍ، والتفتَ على الرجلِ القابعِ على كرسيهِ وقالَ:

- أنتَ لا تهتمُّ لأمرِ المبدعينَ والمهرةِ، ستندمُ يومًا ما.

- عبسَ الرجلُ بوجههِ خلفَ مكتبهِ في حركةٍ تُنبئ عن الازدراءِ، وهو يشير بيدهِ أن اخرجْ، وأشاحَ بوجههِ نحوَ الجهةِ المعاكسةِ!.

خرجَ الشابُّ برفقةِ رجليِ الأمنِ، وهو يُزمجرُ، وينْعت المديرَ بالجاهلِ الأحمق.

وعادَ يسيرُ دون هدفٍ، يسحبُ نفسًا عميقًا للتنفيسِ عن غضبهِ، حتى قادتهُ قدماهُ إلى حيثُ يسكنُ رفيقهُ المُغترب الذي قدِمَ مثلهُ طلبًا للعلمِ.

طرقَ بابَ شقتهِ واتّكأ بجسدهِ على الحائطِ في انتظارهِ أن يفتحَ، وأغمضَ عينيهِ بشدةٍ، كأنما يودُّ لو يستيقظَ من حلمٍ مزعجٍ .

فتحَ البابَ، وأطلّ وجهٌ بشوشٌ، اتسعتْ حَدقتا عينيهِ دهشةً، وهو يرى صاحبهُ على هذهِ الحالِ، وبادرهُ وهو يخرجُ ليمسكَ بهِ.

- ما بكَ يا رجل؟

- لا شيءَ، وهو يبعدهُ؛ ليسمحَ لهُ بالدخولِ، فهو يعلمُ أنّ صاحبهُ الساخرَ يعيشُ وحدهُ، فهو أعزبُ تبعهُ صاحبهُ، وما زالتْ الدهشةُ تزيدُ حدقةَ عينيهِ اتساعًا، ويسألُ:

- ماذا دهاكَ يا رجلُ؟!

هلْ خسرَ فريقكَ المفضلُ، أو تمرُّ بضائقةٍ ماليةٍ؟ لا أحدَ ينقذكَ منها إلا صاحبكَ الطيّب أنا.

- ودون مقدماتٍ وهو يهمُّ بالجلوسِ المبعثرِ ردّ عليه (طُردتُ من العملِ).

- الله أكبرُ، ما هذا الخبَر السعيدِ الذي سيفتحُ آفاقا للعالمِ؛ ليتقدمَ، وقائدهُ أنتَ يا صاحبي، (صرخ بها صاحبه).

- وقفزَ بحركةٍ خفيفةٍ، وجلسَ بقربهِ، وسألهُ:

لماذا طُردت يا عبقريّ؟!

- ينْعتني بالفاشلِ!

- قد يكون محقًا، وغمزَ بعينهِ مبتسمًا.

- ماذا؟

أنا فاشلٌ أيّها التعيس؟!

- لم لا؟ وأنتَ تختارُ رجلًا مفلسًا وفوضويًا مثلي صديقًا لك؟.

- أليسَ من الأجْدى وأنتَ العبقريّ أن تبحثَ عن رفقةٍ ذكيةٍ، تدفعُ بكَ للأمامِ؟

- قالها وهو ينهضُ ويكملُ، سآتيك بكوبٍ من الشاي؛ لنكملَ الحديث.

أمضَى عامرٌ ليلتهُ بعـد أن خـرجَ مـن شـقةِ رفيقـهِ جـوادٍ في غرفته جيئةً وذهابًا، ما بينَ مكتبهِ البسيطِ وفراشهِ، حتى غلبه النومَ فنامَ.

لتمضيَ بهِ الأيامُ متشابهةً، فحينَ يستيقظُ يَهيمُ علـى وجهـهِ؛ بحثًا عن وظيفةٍ، وفي الليلِ يسهرُ معَ صديقهِ المشـاغبِ الـذي هو الآخرُ أخذَ على نفسهِ عهـدًا أن يبحـثَ دون كلـلٍ عـن وظيفةٍ مرموقةٍ، تليقُ بعقليـةِ صـديقهِ، فهـوَ يثـقُ بـهِ، ويـراهُ مخزونًا هائلًا للمهـاراتِ اليدويـةِ رغـمَ لا مبالاتـهِ وإهمالـهِ! عامرٌ رغمَ شخصيتهِ الفوضـويةِ غـير المباليـة إلا أنـهُ طمـوحٌ وعبقـريٌ في الكتابـةِ والرسـمِ والتصـميمِ، وبـارعٌ جـدًا في الهندسةِ الميكانيكيةِ، وبعدَ فصلهِ من وظيفتـهِ استسـلمَ لحالـةِ الإحباطِ، وتقوقعَ على نفسـهِ، ففـي الليـلِ يكتفـي بالرسـمِ والتصميمِ وممارسةِ الكسـلِ، وحينًـا يصـمِّم ويعـودَ ليمـزقَ الـورقَ، ويلقـي بـهِ حتـى فاضـتْ لديـهِ سـلةُ المُهمـلاتِ بالقصاصاتِ الممزقةِ، وأحيانًـا يكتفـي بالكتابـةِ، وفي النّهـارِ يدورُ على المكاتبِ الهندسيةِ والمجلاتِ والصُحفِ يبحثُ عـن وظيفةٍ حتى أنهكهُ البحثُ، واستسلمَ وعادَ لقلمهِ، يصبُّ بـهِ جامَ غضبهِ على واقعهِ ومحيطهِ، هذهِ المدنُ الصـمّاءُ الرماديـةُ

لا تحْتفي أبدًا بالمبدعينَ، وتكْتفي أن تفتحَ ذراعيْها للغرباءِ؛ ليُحدِثوا الندباتِ الغائرةَ في وجْهها دونَ أن يجْعلوا منها مدائنَ ذاتَ بهجةٍ!

- لو كانَ بيَدي عُدت إلى ديارِي.

- بينمَا صديقهُ جوادٌ يتابعُ، ويبحثُ، ويسألُ علّهُ يظفَر بفرصةٍ لصديقهِ.

وذاتَ مساءٍ وبينما عامرٌ يسامرُ صديقهُ جوادًا في شقتهِ، إذْ بالبابَ يُطرقُ، ويفتحُ جوادٌ البابَ؛ ليدْلف منه شابٌ يتأبطُ حاسوبًا، يبدُو أنهُ ليسَ من الأجهزةِ الحديثةِ، وقبيلَ أن يُلقي تحيةَ المساءِ، يمازحهُ جوادٌ..

- هاه ماذا لديكَ الليلةَ يا قصيّ؟

هلْ هيَ علةٌ جديدةٌ، تدكُّ مفاصلَ جهازكَ العريق؟

- مرحبًا جواد، في الحقيقةِ أأ، ويعودُ؛ ليصمتَ، وهو ينتبهُ لوجودِ عامرٍ، وقدِ استغرقَ في تصفحِ كتابٍ بين يديهِ.

- لا بأسَ، تفضّل بالدخولِ يا قصيّ، فقدْ اعتدتُ أن يجتمعَ لديّ هنا بؤساءُ الأرضِ.

- دخلَ قصيّ، وألقى التحيةَ على عامرٍ الذي رفعَ رأسهُ، ورحّبَ بهِ، واستطردَ قائلًا:

- ماذا يا قصيّ!؟

ألا زلتَ مصرًا على استخدامِ هذا النّوع من الأجهزةِ؟ لماذا لا تسْتبدله؟

- ليسَ بعدُ يا عامر، فلستُ متفرّغًا لهذا، لديّ ما هو أهمّ، ولكن الجهازَ يبدو أن فيهِ خللًا ما!

- تناولهُ عامرٌ وهو يقولُ لا بأسَ سنرى.

- وفي أقلّ من ساعةٍ كانَ جهازُ قصيّ يعملُ بسلاسةٍ ودقةٍ، وهنا تساءلَ قصيّ.

- عامرٌ لمَ لا تعْمل لدينا في الشركةِ؟!

- وماذا أعملُ لديكم وشركتُكم تختلفُ عمّا أجيدهُ؟

- عامرُ أنتَ رجلٌ بارعٌ في الهندسةِ، لماذا تحصرُ موهبتكَ في التصميمِ؟

- هنا تدخّل جوادٌ مؤيدًا لاقتراحِ قصيّ، وضربَ جبينهُ بكفهِ قائلًا:

- آه، نعمْ نعمْ، كيفَ غفلتَ عن هذهِ الفرصة؟!

عامرٌ إنها فرصتكَ، ويقرصُ يدهُ، ويهمسُ لتعودَ تصلحُ حالكَ مع أهلِ خطيبتكَ.

مضتْ ليلتهُم وهم يخطِّطونَ لما سيتمُّ تنفيذهُ غدًا صباحًا.
لم يستطعْ عامرٌ أن يخلدَ للنومِ، وبقي طويلًا، يتقلبُ على فراشهِ تتنازعهُ الأفكارُ، هل يظفرُ بالوظيفةِ؟ ويعودُ ليبني نفسهِ من جديدٍ، أو يتعثرُ، ويحملُ حقائبَهُ عائدًا لمدينتهِ التي تركها منذُ أربعِ سنواتٍ كانَ يحلمُ أن يعودَ ذا مالٍ؛ ليتزوجَ من فتاتهِ التي اختارتها والدتهُ.
- أشرقتْ الشمسُ وعامرٌ لم يكتفِ بالنومِ، ولكنهُ نهضَ سريعًا؛ ليرتدي أجملَ ملابسهِ، وينزلُ يقفزُ درجاتِ السلمِ؛ آملا في يومٍ سعيدٍ رغمَ توترهِ وقلقهِ اللذين ظهَرَا واضحين على وجههِ.
- التقى عامرٌ بصديقيهِ: جوادٍ وقصيّ الذي استلم زمامَ أمرِ الحديثِ.
- تحدثتُ إلى المديرِ العامِ بشأنكَ، وقدْ وعدني خيرًا، ولكنه لمْ يأتِ حتى اللّحظة، سننتظرهُ تعَالَ معي.
- دخلَ الثلاثةُ في مكتبِ قصيّ الذي طلبَ لهما القهوةَ، وأخذَ مكانهُ خلفَ مكتبهِ، يُنهي بعضَ أعمالهِ، بينما عمَد جوادٌ إلى ممازحةِ عامرٍ لإحساسهِ بتوترهِ.

- عامرٌ إن استلمتَ الوظيفةَ فأنتَ مدينٌ لنا بدعوةٍ على العشاءِ هذه الليلةَ، مع أني لن أقرضكَ مِلِيمًا واحدًا؛ لنرى كيفَ يتصرفُ العبقريّ؟

- وعامرٌ بدَا وكأنه لا يسمعهُ، واكتفى بالعبثِ بقلمٍ بينَ يديهِ في حركةٍ تنبئُ عن توترٍ مُبطن، لم يقطعهُ سوى صوتِ جرسِ تنبيهٍ لقصيّ يدعوهُ لمكتبِ المديرِ العام.

- انتهتِ المقابلة بتوظيفِ عامرٍ مُهندسًا لأجهزةِ الكمبيوتر في الشركةِ، وخرجَ الأصدقاءُ يتبادلونَ النّكات والمزاحَ على وعدٍ أن يجتمعوا مساءً للعشاء.

- عادَ عامرٌ لبيته على أن يستلمَ العملَ منذُ الغدِ، وألقى بجسدهِ على أريكةٍ، واستلّ قلمهُ؛ ليكتبَ.

(حياتُنا مهمَا حاولْنا أن نسيرَ بدفّتها حسبَ ما نرغبُ إلا أننا نتعثرُ، ليسَ لسوءٍ فينا، ولكنّها أقدارُنا، والسعيدُ من ينهضُ من تعثرهِ بدعمِ أصدقاءِ الوفاءِ).

ألقى قلمهُ، وغطّ في نومٍ عميقٍ، لم يوقظهُ منهُ إلا رنينُ هاتفهِ:

- نعم، ردّ بصوتٍ مُتحشرج من النومِ.

- وقفزَ فجأةً حينَ سمعَ صوت.

- قصيّ: عامرٌ أين أنتَ يا رجلُ، وصوتهُ مخنوقٌ بالدموعِ.
- ماذا بكَ؟.
- جوادٌ يا عامرُ.
- جوادٌ ؟!
ماذا بهِ؟ هل حلّ به مكروه؟
قصيّ تحدّث، ماذا حدَث؟
- جوادٌ وهو يخرج من الشركة بعد أن أنهيت المقابلة آآآ، اصطدمتْ بهِ سيارةٌ عابرةٌ، وانخرطَ في بكاءٍ موجعٍ.
- ماذا حدثَ هل أصيبَ؟
- ماتَ جوادٌ.
- ألقى بالهاتفِ، وشعرَ كمنْ فقدَ عقلهُ وذاكرتهُ، فلا إحساسَ ولا دموعَ ولا ردةَ فعلٍ سوى سكونِ أمواتٍ.
(أن تفقدَ خيرةَ الأصدقاءِ، فهذا موتٌ آخر).
سطْرٌ دوّنهُ في مفكرةٍ، تركها على طاولةِ في شقتهِ قبل أن يغادرَ نهائيًّا عائدًا لمدينتهِ حاملًا ذكرياتهِ فقط، فما عادَ يرغبُ بالبقاءِ في مدينةٍ، لا يرى فيها جوادًا يتجولُ معهُ في عقلهِ، يقرأُ أفكارهُ ويقيلُ عثرتهُ.

الكنْز أن تجدَ وطنًا في قلبِ صديقٍ وفيٍّ لا أن تحظَى بوظيفةٍ
دون روحٍ في مدائنِ الرمادِ.
وقَفَلَ راجِعا.

نبض في قلبين

اغرورقتْ عيناها بالدموعِ، وأنشبتْ غصة مؤلمة براثنها في عمق حنجرتها، وارتفعَ صدرها في شهقاتٍ مكتومةٍ، وهي تتذكرُ شقيقتها نورة!

حاولتْ أن تتجاوزَ هذه الذكرى، وتنفُض ذاكرتها من كلّ التفاصيلِ الصغيرةِ وفي كل مرة تفشل، وتستسلمُ للبكاء بحرقةٍ وهي تعودُ بذاكرتها إلى ما قبل أربعينَ عامًا، طوتها، وكأنها برهَة من زمن! تعودُ؛ لترى نفسها وشقيقَتها نورة في مسكنهِما المتواضعِ مع والدتهما، تلك السيدةُ الوقور التي لا همّ لها إلا إدارة شؤون مملكتها الصغيرة، فما بين عنايةٍ بالزوجِ الى رعايةِ تلك الفتاتينِ الرائعتينِ (نورة وجميلة). تعلمتا من والديْهما الإيثار، وحبّ الآخر حتى أصبحتا كالروحِ الواحدةِ في جسدينِ، تتبادلانِ الأدوار في منزلِهما الوديعِ بكل سلاسةٍ وتناغمٍ .

فحينَ تقومُ نورة بمساعدةِ والدتها في شؤون المنزلِ تنهض جميلةٌ لغسلِ ملابسِ شقيقتها بكلّ أريحيةٍ وحب. لم يكدّر صفوَ حياةِ الفتاتينِ إلا فقدُ والدهِما الذي نذر نفسهُ

لتأمينِ حياةٍ كريمةٍ لهنّ حتى أنهكه المرض، ونالَ منه إلى أن أسلمَ روحه لبارئها؛ لتتغير وتيرةُ الحياةِ للفتاتين! فالأمّ الرؤومُ تقدمتْ في السنّ بسرعةٍ أكبر؛ حزنًا على رفيقِ دربها، ولم تعدْ قادرةً على الوفاءِ بمتطلباتِ المنزلِ رغم صغَره، واعتادت الفتاتان الاعتماد على نفسيهما؛ رأفةً بوالدتهم.

جميلة.. كانت الأكبر سنًا، والأكثر هدوءًا، تقومُ بأعمالِ المنزلِ بحبٍّ وإيثارٍ، بينما تحاولُ نورة أن تكونَ عونًا لها، ولكنّ بصرها الضّعيف لا يساعدها في التفاني كما هي شقيقتها جميلة!

استمرت الحالُ وجميلةُ لا تتوانى أبدًا في خدمةِ والدتها المريضة ومسانَدة شقيقتها، حتى استيقظتْ ذاتَ سحرٍ على أنينِ والدتها، وقفزت إليها بهدوءٍ، حرصًت على عدم إيقاظ نورة!

- أمّي ماذا حلّ بك؟

ووالدتها لا تجيب.

- أمّي أمّي!

هنا شعرتْ جميلةٌ بالخوفِ ينهشُ قلبها، وسرتْ في جسدها قشعريرةٌ حينَ لمحتْ تعرّق جبينِ والدتها، وبرودة أطرافها، ونهضتْ مسرعة، لا تدري إلى أين تذهب!..

وفجأةً التفتت إلى شقيقتها، وهوَت عليها تهزّها برفقٍ بيدٍ مرتعشةٍ وصوتٍ هامسٍ..

- نورة نورة!

هيّا استيقظي.

تمْلمَلَت نورة في فراشها، وتساءلتْ ماذا تريدين؟

- أمّي يا نورة متعبة.

قفزتْ نورة جالسةٌ، وحدّقت في جميلةَ.

- ماذا؟

وقبلَ أن تجيبَ جميلة كانت نورة تحتضنُ رأسَ والدتها وتنادي أمّي أمّي!

سارعتْ جميلةُ للاتصالِ بأحدِ معارفهم؛ لنقلِ والدتها للمستشفى، ولكنّ الأمّ أسلمتْ روحها بين يدي نورة قبلَ وصولِ الإسعاف!

وأسقطتْ نورة رأسها في صدرِ والدتها تنتحبُ بمرارةٍ، وجميلةُ تحاولُ أن تبعدها برغم ما في قلبها من حزنٍ وألمٍ،

فهي تعلمُ يقينًا أن والدتها الأمانُ والحنانُ لها ولشقيقتها التي لازمتها حالةٌ من البكم الاختياري بعد وفاة والدتها، إذ لم تعدْ تتحدثُ مع أحدٍ، ولا تتفاعلُ مع ما حولها، ولا تخرجُ من منزلهم رغم محاولاتِ جميلة، حتى لازمَها مرض عينيها وتطورَ بصورةٍ متسارعةٍ.

فكفّ بصرُها، وزادتْ وحشتُها وانعزالها، وتحمّلت جميلة عبْء الحياةِ وحيدةً، وكثيرًا ما طرقَ بابهم خاطبٌ فترفضُ بشدةٍ، إذ نذرت حياتها لشقيقتها فكانت الأمّ، والأب، والأسرة، والحياة بأسرها لنورة؛ لتسير الحياةَ برتابةٍ وهدوءٍ، والفتاتان تعيشان كما لو كانتا روحا واحدة في جسدين، فحين تبتسمُ نورة يرقصُ قلبُ جميلة فرحًا، وحين تتألمُ وتغيب السعادة عن قلبِ نورة كانت جميلةٌ المُتكأَ لخطواتِ نورة والنورَ لعينيها.

وذاتَ صباح، وبينما جميلة تقومُ بغسلِ ملابسهما، تحركتْ نورة ببطء نحو المطبخ، وفجأة سمعت جميلة سقوط شيءٍ ما تلاها صرخةٌ من نورة، ألقت ما بيديها، وأسرعت للمطبخِ، وهي تنادي: نورة نورة!

وقبلَ أن تدْخله إذا بشقيقتها نورة تخرجُ مترنحةً تـدورُ حـولَ نفسها، ثم تسقطُ أرضًا دون حراك!

انكبتْ عليها جميلة تصـرخُ، وهـي تهزّهـا، وإذا بـبعضٍ مـن بشرة نورة تتسلّخ، وتعلق في كفيْ جميلة التي أصابها الـذهول والتشنّج، ولم تعدْ قادرة على الحركة، فقد اكتشفتْ أن إبريق الشاي الساخنِ قد انسكبَ على صدرِ وجزءٍ كبير من جسـدِ شقيقتها الضريرة.

مرت عدة دقائق كانت أطولَ من أيامٍ على جميلة؛ لتستوعبَ أنها مكبلةٌ بالصدمة، فتنتفضُ، وتركض؛ طلبا للنجدة لتعـودَ متأخرة، ونورة تلتزم الصمت الأبدي.

يمضي الزمنُ بجميلة، وتشتعل نارُ معارك الوجـدِ والحـنينِ في قلبها، تطيل النظرَ إلى شـجرة سـدرٍ صـغيرةٍ، غرسـتها ذاتَ وقـت في منـزلهم؛ لإسـعادِ والـدتها، وأوكلـتْ مهمـة ريّهـا لنورة، فما عليها سوى أن تفتحَ صنبور الماءِ؛ لينساب رقراقًـا إلى حيث غرست.

تكسـرتْ أغصـان السـدرة، وداهمهـا الجفـاف، فتسـاقطت أوراقها، وما بقي غير ساقٍ واحدة تقـف بهـا علـى الأرضِ

تتشبث بالتربةِ، ترقبُها، وتتحدث إليها دون صوتٍ مسموع: أيّنا يعاني اليتمَ والوحدة؟ أتفتقدين أمي ونورة؟ عطشك يا شجرة للماء، وعطشي أنا للأحبة!

ودون وعيٍ تتقدم للصنبور، وتلفها ليتدفقَ الماء مجددًا، وتقفُ جميلة، وكأنما تسلّل الماء إلى روحها هي!

فتتنفسُ بعمق، وتدلفُ إلى حيث مكتبتها، وتتناولُ كتابًا عُنونِ له بـ (اصنعْ حياتك).

تقلبُ الكتابَ بين يديها، وتقلبُ الصفحات دون تركيزٍ، وقبل أن تعيدهُ سقطت عينها على عبارة: (الحياةُ أجْمل من أن نهدرَها في الحزن).

استوقفتها الكلمات، وهزّت رأسها موافقةً، وعادت لتغلقَ صنبور الماء، وتحادث شجرتها:

سأعود كلّ يوم لريّكِ، فأورقي، إذ لا يناسبكِ الذبول، في محاولةٍ جديدةٍ للعودةِ للحياةِ الجميلة!

ولكن ودون وعي تسلّلت كفها إلى وجنتِها تتحسّسها يمنةً ويسرة، وتتوقفُ حركتها على أخاديدَ صغيرة، شقتْ طريقها في وجهها، وتعودَ لتتذكر أنّ العمرَ يمضي وما زالت نورة تعيش في داخلها!

العمرُ يمضي، وليس هناك بصيصُ أملٍ في تغيير رتابة الحياة!
العمرُ يمضي، وتتصرّم أوراقه دون رفيقٍ، يؤنس وحشتها، ولا طفلٍ يملأ البيتَ ضجيجًا!
التفتتْ إلى مقعدٍ صغير يقبع بجوارِ منضدة يتكئُ عليها هاتفٌ أخرس، تقدمتْ نحوه بكل هدوء، ورفعتْ سماعتهُ إلى أذنها، وركزتْ بصرها على لوحةِ أرقامه ثم مدّت يدها، وبدأت أصابعها تنتقلُ بين الأرقامِ بتثاقلٍ، وأصختْ سمعَها إلى صوتٍ يأتي من بعيد:
ألوو:
مرحبًا مركزُ طمأنينة للاستشارات الأسرية والنفسية؟
- من المتحدث؟
- وبعد برهةِ صمتٍ نطقتْ جميلة
- نعم أنا جميلة، هل بإمكاني حجز موعد لديكم؟
- جلست جميلة أمامَ الموظفة مطرقةً رأسها، وحينَ رفعت بصرها، وجدت الموظفة تنظرُ إليها بهدوءٍ، وفي عينيها بريقٌ يدفعها للحديث..

- وتحدثت لها عن كل تفاصيلها في راحةٍ عجيبة، وكأنّ بينهما قرنًا من الصداقةِ العميقة، فتكررت الزيارات، واللقاءات، اكتشفت معه المستشارة أنها أمامَ شخصيةٍ، عميقةٍ، معطاءةٍ، صبور، مما استدعاها؛ لأن تسعى لها في وظيفةٍ في المركز نفسهِ وبالفعل.

- انطلقت جميلة في حياتها الجديدة إنسانةً أخرى تتذكر ماضيها، وتحلمُ بمستقبلٍ جميلٍ وواعد.

وأغلق الباب

في قريةٍ نائيةٍ، وفي بيتٍ ريفيٍّ بسيطٍ، يفتقرُ لكلِّ مقوماتِ الرفاهيةِ، أطبقَ الليلُ قبضتهُ على أركانهِ وزواياهُ، وسادَ صمتٌ رهيبٌ، لا يقطعهُ إلا وقْعُ خطُواتٍ حائرةٍ، تسيرُ مجيئًا وذهابًا، تقفُ تارةً، وتتحركُ تاراتٍ لشخصٍ، توشحَ بالظلامِ، فجأةً مزّقت سكونَ الليلِ صرخَةٌ بريئَةٌ معلنةٌ ميلادَ (عليّ)، فارتفعتْ همهماتٌ وتراتيلُ؛ حمدًا للهِ من الرجلِ الطاعنِ في السنِّ الذي جثَا على ركبتيهِ؛ سجودًا لربه؛ فقد رُزق أخيرًا بمولودٍ بعدَ صبرٍ وطولِ انتظار، رغمَ تعددِ زيجاتهِ التي انتهتْ جميعها دون أطْفال!

حتى اقترنَ بزوجتهِ هذهِ التي هي الأخْرى لم تنجبْ بعدَ أن خاضتْ تجربةَ زواجٍ، استمرتْ عشرةَ أعوام.

مضت بهما السنوات سريعةً، وهما يراقبانِ طفلَهُما يكبرُ أمام عينيْهما، طفلٌ كانَ سمعَ والدَيه وبصرهُما.. لا ينامانِ حتى ينام، ولا يأكلانِ حتى يأكل.

نشأَ عليّ مُدلّلًا.. طلباتهُ أوامر، ورغباتهُ مجابة دون تردُّد، مما جعلَ منه شخصًا نرجسيًا، لا يهتمّ لأمر أحدٍ إلا نفسه.

يرى والدتهُ المتعبةَ بالكـادِ تـنهضُ؛ لتحضـرَ لـه مـا يسـدّ بـه جوعهُ، فلا يحرّك ساكنًا.. فقدِ اعتادَ أن تأتيَ لـه الأشـياءُ، لا أن يذهبَ إليها.

التحقَ بالمدرسةِ القريبةِ من سكنهِ، وكـانَ والـدهُ يحمـلُ عنـهُ حقيبتهُ؛ ليوصلهُ صباحًا، ويعودُ بعـد الظهـرِ، فيحمِلـها مـرةً أخرى؛ شفقةً على فلذةِ كبده.

تعوّد أن يكونَ محطَّ أنظارِ زملائـهِ الطلبـة، فكـلّ مـا تشـتهيهِ نفسهُ يأتي به، ووالدهُ يكدّ ويكدحُ ليلَ نهارَ؛ كي يوفرَ له مـا يحتـاج إليـه، ونبوغُـهُ في دراسـتهِ زادهُ غـرورًا وتعاليًـا علـى أصحابهِ!

لم يكنْ ينغّص عليهِ عيشَهُ سوى حالةِ والديـهِ الترديـةِ ماديًـا وفقرهُما، إذ يشعرُ بالحرجِ حين يُكتشف أمر حاجتِهما حتـى لجأَ للتظاهرِ بعكسِ ذلكَ؛ ليبدوَ أمامَ أقرانـهِ في المدرسـةِ أنـه ينتمي إلى عائلةٍ ثريةٍ.

أصبحَ متغطرسًا ومتمردًا على والديه، مـارسَ عليهِمـا أشـدّ أنواعِ الضغطِ حتى قرّر مغادرةَ قريتـه الـتي احتضـنتْ قصـةَ كفاحِ والديه، فالقرية لا تليقُ به.

اضطرّ والدهُ للاستدانةِ والخروج من قريتهِ التي ألِفها، وغادرَ إلى المدينةِ مرغمًا، وسكنها، وألحقَ عليًا في إحدى مدارسها.

لم يكن عليّ راضيًا عن وضعهِم المَعيشي.. يتحاشى أن يتكلمَ مع أصحابهِ عن أحوالهِ الشخصيةِ، وظلّ يوهمُ أقرانهُ أنه من عائلةٍ مرموقةٍ وغنيةٍ، حتى وهو يفقدُ والدتهُ إثرَ مرضٍ عضالٍ، ولم يتبقّ له سوى والدهُ المسن.

استمرّ في دراستهِ حتى تخرّج في الجامعةِ طبيبًا مرموقًا رغم عقدتهِ الأزليةِ المتمثلةِ في خجلهِ من فقرِ والدهِ الذي أفنى حياتهُ في تربيتهِ وتعليمهِ!

ذاتَ صباحٍ بعدَ أن غادرَ عليّ منزلهُ إلى المستشفى الذي يعملُ به، شعرَ والدهُ بوعكةٍ جعلتهُ لم يعدْ قادرًا على تحملِ آلامه، فنهضَ بتثاقلٍ، وخرجَ يطرقُ بابَ أحدِ جيرانهِ طالبًا منهم -بخجل- أن يأخذوه، إذ يعملُ ولدَه الدكتور (عليّ)، وحينَ وصلَ إلى المُستشفى لمحهُ عليّ من زجاجِ النافذةِ قادمًا، يتوكّأ على ذراعِ جاره، فنهضَ مسرعًا وأشارَ للممرضة التي لا تعرفُ أنّ القادمَ والدُ الدكتورِ المَاثل أمامَها أن تقولَ للمريض: الدكتور عليّ ذهبَ لاجتماعٍ في مستشفى آخر، وتوارى في غرفةٍ أخرى!

كوّم والدُهُ بجسدهِ الهزيلِ المُنهك على أحدِ المقاعـدِ، لمْ ينفـكّ يسأل ويردّد بصوتٍ مرتعشٍ وعينينِ زائغتين: (أين الـدكتور علـي؟! أيــن الــدكتور علــي؟!) حسْــبما لقّنــه ابنــه!
فجـأةً سـقطَ الرجُـل؛ ليسـرعَ مـن حولـهُ لنقلـهِ إلى غرفـةِ الطـوارئ؛ لتقـدمَ لـه الرعايـةُ الطبيـةُ إلا أنـه لفـظَ أنفاسـهُ الأخيرةَ، وهو ينادي: علي علي..
كانتْ صدمةُ الأطباءِ والممرضـاتِ عنيفـةً وهـم يعرفـونَ أن صاحبَ هذا الجسَد النحيْل والدَ الدكتور عليّ المتغَطرس !
لم يجرؤْ أحدهُم على الذهابِ له؛ لإخبارهِ بموتِ والدهِ.
لكن في لحظة تقدمتِ المُمرضة التي تعلَم أين يختبـئُ الـدكتور عليّ، وذهبتْ إليه وبهدوءٍ استأذنتْ وفتحت بـابَ المكتـب؛ فرأتهُ قدْ أدارَ ظهرَ مقعـدهِ للبـابِ محـدِّقًا في زجـاجِ النافـذةِ، وكأنما يترقبُ خروجَ والدهِ مـن المستشـفى؛ ليعـودَ لممارسـةِ عملهِ.
نطقتِ الممرضة:
- دكتور عليّ : والدكَ آآ
- ماذا؟ طرحَ السؤالَ، وبَدا عليهِ توتّرٌ وحرَجٌ شديدان.
- والدكَ كانَ متعبًا جدًا، وأظنهُ سقطَ ووو

- ومَات؟
- نعمْ دكتور !
بكلّ خجلٍ وندمٍ نهض عليّ من مكانهِ، وتقدمَ نحو البابِ، وبدأ يجري اتصالاتهِ بمعارفهِ، يطلبُ منهم أن يحضروا للمسْتشفى؛ لمساعدتهِ في إنهاءِ إجراءاتِ نقلهِ ودفنهِ.
كانَ يحاولُ ألّا يظهرَ عليهِ أثرٌ للندمِ الذي يمزّقه من الداخل، بكى ندمًا أكثرَ ممّا بكى حزنًا، وهو يمسكُ بيدِ والدهِ النحِيلة ذات العروقِ البارزةِ، قرّبها من شفتيهِ، وقبّلها قبلةً لم تأت في الوقتِ المناسبِ، ولنْ تتهيأ له في وقتٍ آخر!
تذكَّر لحظاتِ تخرُّجهِ في الجامعة، حين أسرعَ له والدهُ مستبشرًا بعيونٍ، تفيضُ منها دموعُ الفرح:
- علي لقد أصبحتَ دكتورًا.. أنا فخورٌ بك!
همسَ لنفسهِ بتوبيخٍ قاسٍ: وما فائدةُ الشهادةِ يا أبي وهي لم تعلمني كيفَ أعتني بك؟ وفي آخرِ لحظاتِ عمرك, سامحْني يا أبي..
نجحَ عليّ في أن يكونَ طبيبًا، لكنهُ سقطَ في وحلِ الغطرسةِ، وقبلها سقطَ في اختباراتٍ عدة: البرّ، والإنسانيّة، والمهنيّة.

حياة

فاطمة شابة ترملت بعد سنوات قليلة من حياة زوجية سعيدة، ثمرتها طفل كرّست حياتها له، تتنفسه حبًّا، خالط عليها نبضها، تراقب حركاته وسكناته، هو عالمها ومستقبلها، تبنيه بدماء قلبها، تخطط له، آمالها معلقة به، تنام وتصحو عليه، لا تستسيغ نكهة طعامها قبله، ولا تخلد للنوم إلا بعد أن يغطّ في نوم عميق، تورق أيامها خضرة وجمالًا، وهي تراه يترعرع أمامها، تراه ماضيها وحاضرها ومستقبلها، هو تفاصيل أيامها.

كبر عمر أصبح شابًا يناقشها، تقنعه مرة وتأخذ برأيه مرات، تحاوره وتطيل حبًّا وإعجابًا، تملأ فراغ روحها، وتروي عطش عاطفتها، فتكتفي به، صنعت منه رجلًا يعشق التحدي بما كانت تردده على مسامعه أمانيها وأحلامها أن يكون ضابطًا بطلًا مغوارًا في الذود عن وطنه، ينام ويستيقظ على أمنيات والدته، وليس كل الأمنيات تتحقق، إذ لم يستطع أن يلتحق بكلية عسكرية فاختار طريق التدريس!

كثيرًا ما يسترجع عمر حماسة والدته، وهي تتحدث، وكأنها تنظر للمستقبل! فتراه فارع الطول، تتكئ على كتفه، فتأمن، وحين تخرج الحروف من فمها إليه كأنما هي قلوب تنبض بالحب والحياة، تطير لتستقر في سويداء قلبه.

أصبح عمر رجلًا يُعتمد عليه، وكان لا بدّ من أن تبحث له عن زوجة، هي تعلم جيدًا أنها ستأتي لتقاسمها قلبه! لا بأس.

وتدرك أن جزءًا من روحها قد تسكن جسدًا غريبًا! وأيضا لا بأس، المهم أن يرفرف بأجنحة السعادة، أن يحلق في سماوات الفرح، أن يضحك، أن يعيش نفس مشاعرها نحوه حين يرزق بطفل.

جلست معه ذات مساء، وتحدثت إليه، واستشارته في إحدى الفتيات التي تقرب إليها من بعيد، تردّد عمر، وقال: إن الوقت ما زال مبكرًا، ولكن، وتحت إلحاح والدته وافق، وكان لها ما أرادت.

تزوج عمر الفتاة الأنيقة الرقيقةحياة، وسكن معها فأضحت والدته تقرأ عناوين السعادة والحب في عينيه ليل نهار، فيرقص داخلها فرحًا.

زوجة عمر أدركت مكانة والدته في قلبه، فحاولت أن تتقرب إليها، وأحبتها حتى أصبحت ابنة لها، فلا تخرج إلا معها، ولا تنام حتى تدخل أم زوجها غرفتها، وتستمر بهم عجلة الحياة.

يرزق عمر بطفل يشبهه كثيرًا، فرحت به والدته، وتعلق قلب عمر بالصغير، حتى كاد أن ينسى بعض تفاصيل والدته..! إذ لم يعد كما كان حين يدخل المنزل بعد عودته من عمله، فيتجه إلى باب غرفة والدته، يطرقه؛ ليطمئن عليها إن لم يجدها أمامه في مكان جلوسها المعتاد!

أصبح يدخل ويده محملة إما بلعبة، أو كيس من الحلوى للصغير، يدخل وصراخه يسبقه، ينادي على رائد، مما جعل زوجته اللطيفة تنبهه أكثر من مرة إلى ما يجب فعله!

فوالدته طال صمتها رغم تبسمها وفرحها بصغيرها، لم يلحظْ عمر أن حركة والدته ضعفت، وأن وجهها اكتسى بالشحوب والاصفرار، كانت الأم تعاني في صمت، فلم ترغب في تكدير صفو حياة عمر وعائلته الصغيرة، إلا أن حياة زوجة عمر كانت تلحظ ذلك.. وذات صباح لم تخرج

الأم من غرفتها، فتقدمت حياة نحو الباب على استحياء وحرج، وطرقت الباب، وسمعت صوتًا واهنًا ضعيفًا من الداخل يدعوها للدخول، دخلت حياة وإذا بالأم في فراشها، وأسرعت نحوها حياة: أمي ماذا حلّ بك؟ هل أنتِ متعبة؟ فحاولت الأم أن تتظاهر بالقوة، وتحاول النهوض وقالت: لا تقلقي، قليل من الإرهاق، ولم تكمل إذْ خارت قواها، وشعرت بغثيان كادت تخرج معه روحها من جسدها، أسندتها حياة، وهي تتمتم، لا تتحركي يا أمي، سأتصل بعمر؛ ليأخذك إلى المستشفى، ورغم محاولة الأم منعها؛ خوفًا على عمر إلا أن حياة كانت أسرع حركة، فنهضت بخفة، وانطلقت تتناول الهاتف؛ لتتصل بعمر الذي ما لبث إلا وقد قدم ليحمل والدته، وينقلها على عجل للمستشفى، وحين استكمل الطبيب الفحوصات قرر أن يبقيها في المستشفى تحت الملاحظة، وأمسك بيد عمر، وخرج به في الممر المقابل لغرفة الطوارئ، وتحدث إليه قائلا:

عمر ألم تكن والدتك تتناول أدوية قبل هذا؟

أجاب عمر في توتر: بلى؛ لأنها تعاني من آلام في المعدة.

تنحنح الدكتور، وتردّد قليلًا، ثم قال:
والدتك يـا عمـر تعـاني فشـلا في الكبـد و ... وكـتم عمـر صرخته، وهو يقـول: مـاذا؟! فشـل في الكبـد؟ منـذ متـى؟ وكيـف؟ و .. وقاطعـه الطبيـب: يبـدو أن والـدتك امـرأة صبور، فلم تفصح و..
وهنا تدحرجت دمعات من عـيني عمـر، فربّـت علـى كتفـه الطبيب، وطمأنه أن العلاج يتطلب متبرعًا بجزء مـن الكبـد، ولا بد من تطابق الأنسجة لضـمان نجـاح العمليـة، وغـادره الطبيب!
دارت الأرض بعمر، وبحث عن أقرب مقعد؛ ليتهاوى عليه، وبكى كما لم يبكِ من قبل، وعاد شريط حياتـه سـريعًا أمـام عينيه منذ أن كان طفلًا حتى لحظته!
عاد عمر إلى المنزل دون والدته، واستقبلته حياة بلهفـة: أيـن أمي يا عمر؟
- إنهـا متعبـة وأبقاهـا الطبيـب تحـت الملاحظـة، وغـرق في صمت رهيب!
عادت حياة للسؤال: ومن بقي معها يا عمر؟

أجابها بصوت مخنوق: لا أحد.

خرجت حياة من الغرفة، وتوجهت إلى غرفة الأم، ورتبت لها بعضًا من ملابسها في حقيبة صغيرة، ثم عادت؛ لتدلف إلى غرفتها، وترتب لها أيضا حقيبة صغيرة، ثم عادت إلى حيث يجلس عمر وبلهجة آمرة لا تردد فيها، قالت: خذني إلى أمي.

رفع عمر رأسه، ونظر إليها في دهشة، وقال: ولكن البيت والصغير! ولم تتركه يكمل، وقالت: الصغير بجانبك أنت، والبيت لا ينقصه شيء، خذني إلى أمي، فأنا اعرفها متعبة وخجول.

رافقت حياة مع أم عمر، كانت تحاول أن تخفف عنها، وتساندها، وهي ترى كثرة التحاليل والفحوصات المتكررة التي لن تجدي نفعًا ما لم يكن هناك متبرع بجزء من الكبد..! مما استدعى عمر لأن يخضع للفحوصات ذاتها على أن ينقذ والدته، إلا أن النتائج لم تتطابق، مما زاد في ألم عمر وزوجته النفسي؛ خوفًا على الأم.

وذات ليلة، وبينما حياة تجلس بقرب الأم الممددة على سريرها بالمستشفى، اشتد الوجع بالأم، وعلا وجهها اصفرار مخيف، واعترى جسدها رجفات عنيفة، وتعرق وغثيان، حتى كادت أن تغيب عن الوعي..! وحياة بجانب الممرضات تدعو الله أن يخفف عنها ويشفيها، لتمر الأزمة بسلام، وتهدأ نفس حياة، وتقف على سجادة الصلاة؛ لتبدأ في صلاتها، وتطيل.

وفي أولى سويعات الصباح نهضت حياة، وألقت نظرة على والدة زوجها ثم خرجت من الغرفة، وقد اتخذت قرارها.

توجهت إلى غرفة الطبيب المسؤول، وقدمت نفسها إليه: أنا حياة زوجة عمر ابن المرأة التي تنام في الغرفة ٤ في الطابق الثالث، أرغب في إجراء التحاليل لعل أنسجتي تطابق أنسجتها، فأتبرع لها بجزء من كبدي.

رحب بها الطبيب، وأكبر فيها تضحيتها وأوضح لها المخاطر، وكل ما يلزم فعله، وبعد إصرارها استدعى إحدى الممرضات؛ لتقوم بما يجب.

ذهبت مع الممرضة إلى غرفة صغيرة وسألتها الممرضة: هل المريضة والدتك؟ فهزت رأسها بالنفي قائلة: بل أم زوجي، توقفت الممرضة عن غرز إبرة في يد حياة، ونظرت لها بدهشة وتساؤل: أم زوجك؟

- نعم أم زوجي بمنزلة أمي، أهدتني مهجة فؤادها، وأنا لا أحتاج إليه، أفلا أهديها جزءًا من كبدي وهي تحتاج إليه؟

ابتسمت الممرضة، وأكملت عملها.

مضت الأيام، وحياة تترقب نتائج فحوصاتها حتى أقبل عليها الطبيب ذات صباح، وقال:

- هاه حياة ألا زلت مصرة على التبرع؟

- نعم يا دكتور، قد عملت التحاليل وفوضت أمري إلى الله.

- إذن استعدي لإجراء العملية صباح بعد غدٍ.

- هل- حقًّا- يا دكتور هناك تطابق؟

- ورفعت كفيها للسماء، تحمد الله تعالى، واغرورقت عيناها بالدموع.

- وقالت للطبيب:

أرجوك يا دكتور لا تخبر زوجي شيئًا حتى أخبره أنا، فقد يرفض..! سأخبره قبل العملية، ولكن دع الأمر لي، فوافق لها على طلبها.

وفي ليلة العملية حضر عمر للمستشفى كالعادة، يسأل عن والدته، ويجلس مع حياة، وقد أخذ منه الهم ما أخذ، جلست أمامه حياة، وقالت له:

- عمر سأجري غدًا عملية التبرع بجزء من الكبد لأمي.

- نظر إليها دون مبالاة وغير مصدق، إذ اعتقد أنها أمانيّ ليس إلّا.

اقتربت منه أكثر، وركزت عينيها في عينيه، وقالت:

- نعم يا عمر أجريت كل الفحوصات المطلوبة، وكانت مطابقة جدًّا، وتحدث إليّ الطبيب، وسيجري العملية غدا صباحًا و ...

- فنهض عمر، وقد اعتراه الغضب.

- أجننتِ؟ لن أسمح لكِ.

- عمر اهدأ، أمي تعاني والمتبرع قد لا يأتي، وأنا فوضت أمري لله الذي هو أرحم مني ومنك بي وبها

- ولكن يا حياة أنت وطفلك و...

- لن يحدث شيء إلا وقد كتبه الله علينا و...، غرقا في صمت رهيب لم يقطعه إلا خطوات الممرضة، وهي تقبل على حياة، وتبلغها أن موعد العملية الساعة الثامنة صباحًا، ويجب عليك الصيام.

بكى عمر، وبكت حياة في صمت، حتى موعد مغادرته المستشفى أمسكت بيده، وقالت:

- عمر إن حدث شيء أوصيك بوالدتك وطفلي ونفسك، وتحشرج صوتها، ولم تكمل، وتقدم نحوها، وضمها إلى صدره يقبل رأسها، ويمسح شعرها ثم غادر.

- ليلتها لم ينم عمر، ولم تنم حياة، وفي مساء اليوم الثاني قدم عمر، وقد بدا على وجهه الهمّ والكدر، صعد للغرفة فلم يجد والدته ولا زوجته، وركض في الممر الطويل المؤدي إلى غرفة العمليات، فاعترضته إحدى الممرضات.

- إلى أين؟.

- أين أمي؟ أين حياة؟

- آه أنت زوج حياة! إنها هناك في غرفة العناية الفائقة فقد... ولم ينتظر لتكمل حديثها، انطلق يسبقه قلبه.

- ولكن لم يسمح له بالدخول إذ استوقفته ممرضة أخرى قائلة: هما بخير ولكن ممنوع الدخول، لك أن تراهما من خلف النافذة الزجاجية، واستدارت وتركته.

- وقف عمر أمام النافذة ينقل بصره بين سريرين متجاورين، وبينما هو كذلك أقبل الطبيب

- هاه كيف حالك يا عمر؟

- دكتور كيف أمي وزوجتي؟

- إنهما بخير، لننتظر مرور ما لا يقل عن أسبوع لنتحقق من نجاح العملية..

وهكذا تمضي الأيام بعمر ما بين طفله في البيت وبين المستشفى، حتى حضر ذات صباح، فوجد والدته وزوجته قد نقلتا إلى غرفة خاصة وكانت حياة أحسن حالًا من الأم، استطاعت أن تتحدث مع عمر، وتطمئنه على صحتها، وتسأله عن الأم التي - بعد مضي أسبوعين- استطاعت أن تسترد جزءًا كبيرًا من عافيتها، وتعود للمنزل برفقة ابنها

وزوجته الكريمة، عادت فاطمة وقلبها ينبض حبّـا، ولسـانها يلهج امتنانا لله أن رزقها ابنة مع ابنها، عـادت لتعـود الحيـاة من جديد إلى قلبها قبل بيتها.

امرأة ريفيّة

كنساء الريف امرأة ممشوقة القوام ريانة العود، تلفح وجهها سمرة أخاذة، حادة البصر، دقيقة الملامح وقورة حذرة، لا تكثر الكلام، ولا الابتسام، وتكاد لا تستقر في مكان واحد!

تجوب العالم بأسره، وهي في متكئها، تعشق القراءة حتى النخاع، زارت بها عدة مدائن، وتحدثت إلى كثير من الأشخاص.

اطلاعها الواسع أثرى ملكاتها الأدبية، فأصبحت متحدثة لبقة.

أبت أن تستقر في المدينة، فالريف وقُراه عشقها الأزلي.

يبدأ يومها باكرًا بقهوتها الماتعة التي يضج المكان بعبق رائحة بُنّها الساحرة، الممتزجة بإيحاءات الأصالة في (دلة) قهوتها العربية المميزة.

تمارس طقوسها الصباحية المعتادة بسرعة وخفة؛ حبًّا في سويعات الصباح! فتارة تغرس شتلة، وتارة أخرى تفتح بيديها المعروقتين مجرى ماء صغير؛ كي تسقي إحدى الشجيرات.

معزوفتها شقشقة الطيور، وإلهامها حفيف أوراق الشجر المتناغم مع خرير مياه الساقية.

امرأة استثنائية في كل تفاصيلها، تجمع كثيرًا من المتناقضات، فليست تميل إلى ثرثرة النساء، ولا تخضع إلى سلطة رجل..

اعتادت أن تعتمد على نفسها في كل شأنها.

تعيش وحيدة بعد وفاة والديها وسفر أخواتها لدواعي الدراسة، تؤمن بأن الحياة تكافؤ وتوافق بين روحين، فتحضر التضحية من أجل الآخر.

ذات ليل ألقت بجسدها على الأريكة تلتقط أنفاس فكرها، وتستجلب ذكريات صباها..

يا لهذا العالم السمج!

إلى أين تمضي الأحلام؟!

كيف يمكننا أن نحيا كما نريد؟

لست بحاجة إلى شهادة دراسية؛ لكي أحظى باحترام الآخرين، لا أفكر بالسفر جسدًا، يكفي أن أطوف العالم روحًا ولكن ..

من أين لي بثغر طفل يبتسم لي صباح مساء؟

سنوات العمر تطوى وما زلت أقف في محطة الانتظار.

هزت رأسها، وكأنها تنفضه مما علق به من خيوط يأس، تكاد تكبلها.

تنهدت بنفس عميق، ونهضت تجر أقدامها إلى حيث تجد نفسها، بين دفتي كتاب، ثم استغرقت فيه تبدد بحروفه ظلمة أسى وجدانها وقسوة آلام روحها المؤنبة.

تتوالى الأيام رتيبة على حنان، لا أحد يهتم لأمرها، ولا تحمل هم أحد، برغم ما يجول في خاطرها من أفكار تغرسها في قلبها جارةٌ لها اعتادت أن تستعير منها بعض الكتب، سألتها ذات لحظة صفاء: حنان، إلى متى؟!

ليكون هذا السؤال كالفتيل الذي أشعل حمم البركان داخلها.

حنان .. إلى متى؟

الأيام تمضي والسنوات تطوى، وربيع العمر يزحف نحو الخريف، وأنت هنا، حيث لا أحد .... تحدث نفسها: هل عليّ أن أتخلى عن مدينتي وأرحل؟ أليس هناك من أحد يهتف له قلبه أن حنان تختلف عن نساء القرية؟

هل تخيفهم طقوسي وتفاصيلي؟!

هل يتحتم عليها أن تؤمن بثرثرة النساء وتأكيدهن أن الرجل لا يميل قلبه إلى المرأة الذكية؟!

لا بأس .. هي لن تتخلى عن مبادئها؛ لأجل أن يأتيها أحدهم، وكأنه فاتح بلاد ما وراء النهر، ألم ينضج هذا المجتمع بعد؟ ويلقِ بجلبابه التعيس الذي يلتحف به أفكاره البائسة؟!

آه حنان! ولِمَ لا يكون غرورك هو حائط الصدّ لكل فارس، يفكر في أن يجتازه؟!

تعلمت من والديها أن المجتمع لا يخطئ، بل أفراده من يصنع منه شماعة لإخفاقاتهم.

هل أنت فاشلة يا حنان؟!

هنا فقط أدركت حنان أنها تملك القوة والشجاعة وكثيرًا من أمل.

أدركت أن الإنسان هو من ينثر الفرح متى شاء، ويرسم الآمال متى أراد.

ركلت حنان مقعدًا كان أمامها، وهي تسير نحو مخدعها فانكفأ، فأطالت النظر إليه، كيف لأحد أن يستفيد من مقعد مقلوب ما لم يأت من يعيده سيرته الأولى؟!

إذن القلوب أولى أن نعيد لها نبضها وحيويتها، نتجاهل ما يريده الآخرون، وننطلق إلى ما نريده نحن!

رفعت حنان كتفيها بما يشبه عدم المبالاة، وخلدت للنوم، وصراعها الداخلي مؤجل حتى إشعار آخر.

نجم من ورق

قرية حالمة تحتضنها الجبال، وتعانقها السماء بصفوها، وتحملها أرض يغازلها اللون الأخضر تارة، وتارات يغادرها إلى موعد جديد مع المطر لعله يأتي.

في بيت ريفي صغير ترعرع صالح ذاك الفتى اليافع عاشق للكرة، يداعبها عاري القدمين في مساحة جافة قام بتحديد أطوالها مع أقرانه مساء كل يوم, حتى يحين موعد عودته إلى منزله الصغير فيكمل ركله للكرة في الفناء، إلى أن تداهمه أساطيل التعب والنعاس فيغفو؛ ليستيقظ على حبه الأزلي منذ نعومة أظفاره مما أكسبه مهارة عالية وتحكم عجيب في لعبة كرة القدم, فأصبح محط اهتمام أقرانه فالكل يتودّد إليه ليكون ضمن فريقه الذي يتحدى الفرق الأخرى من أطفال القرية.

اعتاد صالح أن يجالس والده وإخوته الأكبر سنًا، وتشرّب ثقافته الرياضية منهم.

يلتقي برفاقه ويدور الحديث حول الفريق البطل واللّاعب النجم، والبطولة الضائعة!

يخرج من مدرسته، ويلقي كتبه، وينطلق إلى معشوقته، يداعبها ويحادث نفسه، وكأنه معلق رياضي يصف مباراة حماسية فتسمع تعليقه المدهش.

أضنى والدته النصح بأهمية الدراسة والمستقبل، ولكن والده لا يهتم، فهو الآخر مسكون بحب المستديرة.

وذات مساء دلف الأب مسرعًا إلى البيت، يبحث عن صالح، وكأنه يزف بشرى تخرجه، أين أنت؟

توقف صالح أمام والده مشدوهًا، ماذا يريد ؟!

تعال يا بني، سنرافق أبا عبد الرحمن؛ للتسجيل في النادي.

طار صالح فرحًا، وضاقت الدنيا بأسرها في عيني والدته الرؤوم، حلمها أن تراه طيارًا أو مهندسًا أو دكتورًا، يشارُ إليه بالبنان ولكنه تبخر مع فرحة والده بتسجيله في النادي الذي يميل إليه..

ومع تقدمه في السن لمع اسم صالح كلاعب موهوب، وكثُر معجبوه، وأصبح محط أنظار كشافة الأندية لاستقطابه وضاقت أوقاته، وكثرت مهامه، وتراجعت دراسته، كلما تقدم في الملاعب كلما اتسعت المسافات بينه وبين حلم أمه.

رفاقه على أبواب التخرج، وهو ما زال يركض ويركض فهو يحلم بالنجومية ويخطط مع والده لافتتاح أكاديمية رياضية تعنى بالمواهب الرياضية, لتدريبها وصقلها واستثمارها في الأندية, وبدأ في الإعداد لذلك حتى كانت المباراة الحُلم ضد الفريق المنافس؛ احتشد عشاق ناديه في مدرجهم يهتفون باسمه فهو النجم الأول لديهم..

وتبدأ المباراة فأبدع وأمتع, قبل أن يسقط مصابا إصابة بليغة أسكتت هدير المدرجات, ونقل على إثرها إلى المستشفى ليخرج الطبيب بعدها بالخبر المؤلم لن يعود للكرة فإصابته تمنعه من مزاولة الرياضة ..

تكوّم صالح على نفسه، وسرعان ما انفضّ الجمع، وانطفأت أضواء الشهرة والمجد من حوله، فأصبح وحيدًا، جُلّ أمانيه سراب..

والده كمن أصيب في مقتل هو الآخر وهو يرى ابنه كسيحا عاجزا عن مداعبة معشوقته !

ألقى صالح حلمه على قارعة الزمان, وعاد ليبحث عن نفسه فلم يجدها، لم يعد للمال قيمة, والعمر أصبح خريفا, النجم لم يكن من ورق, بل نجم أفل فلا سطوع دائم, ودوام الحال من المحال.

مذَكرات شهيد

أرخَى الليلُ سدولهُ في قريةٍ نائيةٍ، ولم يمزّقْ سكونهُ سوى صرَاخات طفلٍ للتوّ يرى النور، كان حلمًا لأبوينِ، يعشقانِ الأرضَ بكلّ خليةٍ في جسديْهما، فأرضعا الطفلَ هذا الحبّ، ونشأ متيمًا بحب الوطنِ حتى وهو يتلقّى الأوامرَ بالتحرّك للالتحاق بكتيبةِ الجيشِ؛ للذودِ عن حدودِ وطنه..

وقفَ أمامَ والدهِ وقرّر أن يتحدثَ إليه وهو يعلمُ حجمَ الصدمةِ حينَ يعلمُ والداه بذهابهِ للميدان..

وقفَ أمامَ والدهِ لا يدرِي ماذا يقول؟! وهو يراهُ وقدْ انهمكَ في محاولةِ إصلاحِ مولّد كهربائيٍ صغيرٍ! وفجأةً رفعَ الشيخُ الوقورُ رأسهُ، ونظرَ لولدهِ الواقفِ أمامهُ وباغتهُ بالسؤال..

- تحدثْ ماذا لديك؟

- أبي ... ولمْ يستطعْ أن يكملَ..!

ممّا استدعى والدهُ لأن يلقي ما بيدهِ، وينهَض بتثاقلٍ، وينظُر بعمقٍ في عينيهِ فأشاحَ خالدٌ بوجههِ؛ لكيلا يلحظَ والدهُ دمعةً ترقرقتْ في مقلته ..

- مدّ والدهُ يدهُ وأمسك بذقنِ ولدهِ، وأدارهُ نحوهُ بحنانٍ وسأله:

- ماذا بكَ؟ يا خالدُ أمريضٌ أنت؟!

- لا يا والدي، الحمدُ لله أنا بخيرٍ، ولكنْ وصلني أمرٌ بالالتحاقِ سريعًا بالجيش.

أفلتَ والدهُ يدهُ بهدوء واستدارَ يبحثُ عن مكانٍ، يجلسُ فيه وهو يحاولُ أن يبدوَ متماسكًا.

- لا بأسَ يا خالد، هذا واجبك.

- أبي: وأمي؟!

- لا عليكَ، أعرفُ جيدًا أن والدتكَ وطنيةٌ، وتحبّ ترابَ هذا الوطن و ...

- وقاطعه خالدٌ، أعلمُ يا أبي، ولكنها تخافُ عليّ كثيرًا، فكيفَ أخبرها بذلك؟!

- دعْ الأمرَ لي، فقطْ اهتم بأمركَ، متى ستغادرُ؟!

يسألهُ وقدْ جفّ حلقهُ، وبردتْ أطرافهُ، فهو لا يقلّ خوفًا على ولدهِ من أمهِ، ولكنه رجلٌ قدر له أنْ يتجاهلَ مشاعرهُ.

- بعدَ غدٍ يا أبي (أجابَ عن تساؤلِ والدهِ).

- حفظكَ اللهُ يا ولدي، حانَ اليوم لردّ جميلِ هذا الوطن، فهو يحتاج إليكَ؛ للذّودِ عنه.

- غادرَ خالد لبعضِ شأنهِ، وظلّ والدهُ تعصفُ بهِ الأفكار يمنةً ويسرةً، فخالد عينهُ التي يبصرُ بها، وعصاهُ التي يتوكأُ عليها، ومن أينَ له قدرةٌ، تسنده حينَ يخبرُ والدتهُ بعزمهِ على الذهابِ للميدانِ؟ وكيفَ للنومِ أن يبسطَ سلطتهُ على عينهِ في غيابِ خالد؟!

نفضَ يديه ممّا علقَ بها وتحرّك ببطءٍ يبحثُ عن زوجتهِ، وصدرهِ يعلو ويهبطُ في نشيجٍ داخليٍ ارتسمَ أثره على قسماتهِ حزنًا وخوفًا، تسلّل إلى المطبخِ وأطلّ برأسهِ، ورأى أمّ خالدٍ مُنهمكة في إعدادِ وجبةِ الغداءِ ووقفَ حائرًا، هل يحدّثها، فتشاركهُ الهمّ؟

أمْ ينتظر حتى تتناولَ الغداءَ؟

وبينما هو مستغرقٌ في حيرتهِ إذْ بها تلمحهُ، وترفعُ حاجبيْها عجبًا!

- أبا خالدٍ. لماذا تقفُ هكذا؟

وانتبه لنفسهِ وعادَ لرباطةِ جأشهِ، وسألها ألمْ ينتهِ الغداءُ بعد؟

- ليسَ من عادتكَ أن تأتي لتسأل!! هل تشعر بالجوع؟
- لا، ليسَ بعدُ ولكن آآآ.
- ولكنْ ماذا؟ ماذا حلّ بكَ يا رجلُ؟
- لا شيءَ، ولكنْ خالد، وصاحتْ كأنها تستحثهُ على النطقِ، خالد ماذا بهِ؟ للتو رأيته!
- لا شيءَ، اهدئي فقطْ هو مضطرٌ للسفرِ بعدَ غدٍ.
- سفر إلى أين؟
- إلى عملهِ، إلى الجبهةِ
- وسادَ صمتٌ عمِيق.
- ودون وعيٍ تحركا إلى غرفةِ الجلوسِ؛ ليمضيَ اليوم أسرعَ ممّا توقعا، وتحينُ لحظةُ السفر.
- دخلَ خالدٌ على والديهِ بزيّهِ العسكري الذي طالَما افتخرا بهِ، وهو يحملُ حقيبتهُ في يدهِ.
- حاولَ أن يتحدثَ وخذلتهُ حنجرتهُ، وهو يرى والدتهُ، وقدْ لمعتْ دمعَات في عينيها، وشحبَ وجهُ والدهِ، وعلاه اصفرارُ الخوف!

- عانقَ والدهُ وقبّل يديهِ، والأبُ يلهجُ بالـدعاءِ، ويكفكـفُ دمعةً لا يريدُ لها أن تخرجَ؛ رأفةً بزوجتهِ التي احتضنتْ خالدًا وهي تنتحِب.

- خالـد يحـاولُ أن يطمئنهُمـا أنّهـا مـدة قصـيرة، وسـيعودُ بعدها، ثمّ إنه لبّى نداءَ الواجبِ الذي طالَما شجعتْهُ عليه.

- تشبثتْ بهِ والدتهُ، وبلطفٍ حاولَ أن يبعـدَ يـدها ليقبّلـها، ويتجِه نحوَ البابِ، وقبـلَ أن يخـرجَ التفـتَ إليهمـا؛ ليشـاهدَ جبالًا من الحـزنِ تُطبـق علـى قلبيْهمـا، تفصـحُ عنـهُ تعـابيرُ وجهيْهما، ويغادرُ وهو يغالبُ دموعه.

هنـاكَ وفي الكتيبـة كـانَ يزامـلُ خالـدًا خمسـةٌ مـن الرجـالِ يتناوبونَ الحراسةَ في إحدى نقاطِ الدفاعِ عن الحدودِ، فالعدوُ يكرّر غاراته؛ لينالَ منهم فيصطدمُ ببسالتهم، وهكذا مـا بـينَ كرٍّ وفرٍّ، فتمرّ الأيامُ، تليها أيامٌ وشـهورٌ، أصـبح خالـدٌ فيهـا أكثرَ تمرسًا وخبرةً، ونشأتْ بينهُ وبـينَ رفاقـهِ علاقـةٌ أخويـةٌ، يقضـونَ أوقـاتهم في العمـلِ، وتبـادلِ الأحاديـثِ الوديـةِ، والمِزاح فحضرَ الإيثارُ بيـنهم، فحـينَ يشـعرُ أن أحـدَ رفاقِـهِ متعبٌ أو منهكٌ يستلمُ عنهُ المُراقبة.

خالـدٌ يحمـلُ في جيبـهِ قلمًـا ومفكـرةً صـغيرةً، يـدونُ فيهـا يومياتهِ، كتبَ على أولِ صفحةٍ:

(يوميّـاتي أكتبُهـا إذْ قـدْ لا أرويهـا لكـم) وشـرعَ في تـرقيمِ الصفحاتِ وتدوينِ اليَوم والتاريخ في أعلى كلِّ صفحة..

ص١ الأربعاء ٣/ ٥ / .....

الثالثة فجرًا تحركتْ بنا عربةٌ عسكريةٌ أنـا وثلّـةٌ مـن عسـكرِ الكتيبةِ، تتبَعُنا عربتان ومعداتٌ ثقيلـةٌ، اهتـزازاتُ العرَبـة في الطريقِ التُرابي وتمايلنا يمنةً ويسرةً، طردَ ما تبقّى من نعاسٍ..

ومع انبلاجِ الضياءِ بدَأنا نتبيّن أينَ نحنُ؟

وصلنا إلى الهدف.

ص٢ الخميس ٦/ ٣/ .....

أخذنا قسطًا من الراحةِ بعدَ أن قمنا بترتيبِ معسكَرنا وعملِ المتاريسِ؛ لصدّ هجماتِ للعدوّ متوقعة..

رغمَ درجةِ الحرارةِ المرتفعـةِ إلا أنّ معنَويـات الرفـاقِ عَاليـةٌ جدًا.

قضَينا اليومَ في المراقبةِ وتوزيعِ المهامِ.

ص٣ الجمعة ٦/ ٤ / ....

دويّ الرصاصِ يبدُو أنه يقتربُ أكثر، ميدانُ المعركةِ ليسَ بعيدًا، تسودنا حالة من التوتر.

ص٤ السبت ٦/ ٥/ ....

حالةُ ترقبٍ وهدوءٍ مطْبق على المكانِ، لا صوتُ مدافِع ولا أزيزُ رصاصٍ، الكلّ يعملُ بحذر، الليلةُ سيحينُ دوري في استلام المراقبةِ، اللهمّ سلّم سلّم.

ص٥ السبت ٦/ ٥/ .....

أنا ورفيقي خلفَ متاريسَ رمليةٍ، نصَبنا أسلحَتنا ومناظِيرنا الليليةِ، نراقبُ كلّ شاردةٍ وواردةٍ، لا مجالَ هنا للتخمينِ أو الشكّ، مُؤشر الحذَر لدينا في أعلى درجاتهِ، نتحدثُ همسًا، وحينَ الشكّ نكتفي بلغةِ الإشارةِ والإيماء..

ص٦ الأحد ٦/ ٦/ ....

للتوّ سلمتُ لزميلٍ آخر مهمةَ المُراقبة، ألقيت بجسدي في خيمةٍ مُعدةٍ للراحةِ، تفقدتُ قلبي أينَ أحبتي الآن؟ ماذا يفعلون؟!

لا أعلمُ متى وكيفَ استغرقتُ في النومِ؟

ص٧ الاثنين. ٦/ ٧/ .....

استقبلنا قائدًا عسكريًا كبيرًا ووفدًا مرافقًا في زيارةٍ تفقديةٍ سريعةٍ، الأجْواء هذا اليَوم مختلفة، هناكَ شيء من الفرحِ والتغييرِ والبعدِ عن الرتابة.

ص ٨...٩...٢٠....٣٦..

ص ٤٢ تقدمتُ بطلبِ إجازةٍ قصيرةٍ أسوةً ببعضِ زملائي، حيثُ أمضيتُ ما يزيدُ على الأشهر الثلاثةِ لمْ أرَ والديّ وإخوتي.

ص ٤٩ ..الأيام متشابهة! المرابطةُ أثناء الحربِ طويلةٌ جدًّا، يتخلّلها تدرِيبات، وأعْمال رقابة وحراسة، وتنفِيذ مَهماتٍ قصيرةٍ وسريعةٍ، تستمرُ معها الحَياة.

ص ٥٥ اليوم الثلاثاء..يبدو أن قائدَ الكتيبةِ قرأ ما يجولُ في أذهاننا، !تحلّقنا حولهُ في جلسةٍ قصيرةٍ وخاطفةٍ، تحدثَ إلينا، لاطَفنا بأسئلةٍ تمهيدية:

لو قُدر لك أن تتمنى ما أمنيَتك؟

تباينت الإجابات، وأجمعنا على النصر والعودة للأهل والأحبة أو الشهادة..

وفجأةً قالَ لنا:
الأمـنُ مُسـتتب، ونحـنُ نسـيطرُ بفضـلِ اللهِ علـى مُجريـاتِ الأمور؛ لهذا .... وسكتَ قليلًا، وقدْ تعلقتْ أعيننـا بشـفتيهِ، ننتظر ماذا سيقول؟!
وأكمل : لهـذا تمّـت الموافقـةُ علـى الإجـازاتِ المُقدمـة مـن بعضكم بالتناوب، على ألّا تتعدّى ال ٤٨ساعة وهنـا ضـجّ الجميعُ بالحمد لله..
فرِحنا، وتقافزنا وكأننا سنقوم بها الآن..!
عرض علينا القائدُ جدولًا، وطلبَ من كـلّ واحـدٍ الاطـلاعُ على تاريخ إجازته..
ص ٥٦ لم أنمْ ليلةَ البارحةَ كما يجبُ؛ فرحًـا ببشـارةِ القائـدِ، تبقى على موعدِ إجازتي ستةُ أيام، كيف ستمضي؟
بـي شـوقٌ عـارمٌ لأبـي وأمـي وإخـوتي، وقـريتي بمزارِعهـا وبيوتها البسيطةِ.
ص٥٧ منـذُ الأمـس ونشـاطِي البـدني في أعلـى مسـتوياتهِ، كنتُ أنقلُ أكياسَ الرملِ لعملِ السواترِ الترابيةِ؛ حمايةً للثكنـةِ بكلّ همةٍ ونشاطٍ، ممّا اسـتدعى القائـد لأنْ يـثني علـيّ علنًـا أمامَ الرفاقِ..

ص ٥٨ الجمعة أتذكرُ اليومَ ولا أتذكرُ التاريخَ..!
لكن لا بأس، نحنُ وجميعُ الرفاقِ في خيرٍ وسعادةٍ.
ص ٥٩ بينما كنتُ أتجولُ على قدمي حولَ المعسكرِ، إذْ برفيقي فهد القريب لقلبي يناديني:
(أنْ عُد).
لمْ ينتظر أن أصلهُ، بل أسرعَ إليّ!
هناكَ مهمةٌ عاجلةٌ، أسرعْ لحملِ سلاحك، الحمد لله الوضع آمن بعد السيطرة..
ص ٦٠ عُدنا من المهمةِ فقدْ كشفتْ وحداتُ الرقابةِ تسلّلَ بعضَ العناصر من الأعداء، تعاملنا معهم بما يجبُ، أسَرنا بعضهم، وبعضهم عادَ من حيثُ أتى.
ص٦١ غدا تبدأُ إجازتي، سألقى أبي وأمي وأحبتي، عقاربُ الساعةِ أصابها الشللُ بالكادِ تتحركُ، ليتني أستطيعُ تحريكَها.
ص ٦٢ في الطريقِ إلى قريتي، طريقُ السعادةِ لا أستطيع أن أغلق عيني للحظة..! كل ما في الطريقِ شغفني شوقًا وحبًا.
ص ٦٣ لا تسألوني عن التفاصيلِ، فالحروفُ لا تسطّر لمشاعرَ كما يجب.

ص٦٤ اللقاءُ كان حارًا متدفقًا بالمشاعرِ تخلّلتهُ شهقاتٌ وضحكاتٌ في آنٍ واحدٍ، أنا بين أحبتي، الوقتُ يمضي بسرعةٍ عجيبةٍ، لا أرغبُ في النومِ أبدا رغمَ مشقةِ السفرِ.

ص٦٥ أبي يفاجئُني بموضوعِ الزواجِ، ويقرّر أن يكونَ خلالَ أشهرِ الصيفِ، وأمي تصادقُ على القرارِ، واعتمدت اسمَ العروسِ وعائلتها.

ص ٦٦ أظنّ أنني طيبٌ ولطيفٌ جدًا، فقدْ أحببتها مباشَرة حينَ حدّثتني أمي عنها، أصبحت هيفاء حلمي!.

ص٦٧ رتبتُ حقيبتي؛ استعدادًا للمغادرةِ، دموعُ والدتي تقتلني، ما أطيب أن أكونَ في حضنِ والديّ، حيثُ الدفءُ والأمانُ.

ص ٦٨ التفافةٌ سريعةٌ على طرقاتِ القريةِ ومزارعها وإنسَانها ومساكِنها قبلَ أن تختفي بفعلِ سرعةِ السيارةِ (اختفت معالمُ قريتي)

ص ٧٧ ضحكاتُ الرفاقِ وتعليقاتُهم أُنسٌ يزيلُ كدرَ الفراقِ، ويبعثرُ حزني على فراقِ عائلتي.

ص ٧٨ هل كنتُ أحْلم؟

متى سأعودُ مرةً أخرى؟
متى سَيأتي الصيف؟.
ص ٨٠-٨١-٨٢-٨٣ وما بعدها، الأيامُ تتشابهُ في رتابتها!.
ص ٩٢ اجتماعٌ طارئٌ للكتيبةِ.
هناكَ تحركاتٌ للعدو يجبُ أن تُحمل على محملِ الجدِّ (استنفارٌ لجميعِ الضباطِ والأفرادِ)
ص٩٤ أنا ورفيقي نستلمُ المراقبةَ، الليلُ ساكنٌ، والهدُوء يعمُّ المكانَ، نتحدثُ؛ لنقطعَ الوقتَ،
مدّ لي رفيقي فهد ورقةً طوَاها بعنايةٍ وقال:
خذْ هذهِ دعها معكَ فلا ندري نعودُ، أو لا نعود!
إنْ عُدنا استرددتها منكَ، وإنْ لا فأوصِلها لزوجتي، تناولتها منهُ بيدٍ مرتعشةٍ، وأنا مقطّبَ الجبينِ ودسسْتها في جيبي، وسألتهُ بمرارةٍ، لماذا تتكلمُ هكذا؟!
سنعودُ وسنحتفلُ بالنصرِ، وستأتي معي؛ لتحضرَ عرسي.
أشاحَ بوجههِ وقال يا ربّ، واسْتسلمنا لأفكارنا.

ص ٩٧ تمّ رصدُ وحداتٍ من العدوّ تقترب، وأخذنا مواقعنا حسبَ الخطةِ المعدةِ مسبقًا.

ص ١٠٠ سبعُ ليالٍ استبسالٌ في المراقبةِ، ومُطاردة كلّ كائنٍ يهدّد وجُودنا وأمنَنا.

ص ١٠٣ أمرٌ عاجلٌ لنا بالتحركِ لمساندةِ كتيبةٍ أخرى.!

ص١٠٤ اشتباك مباشرٌ مع العدوّ، أزيزُ الرصاصِ وهديرُ الآليات والمرْوحيات يصمّ الآذان..

أتقدمُ أنا ورفيقي فهد ببطءٍ، نحاولُ أن نتحاشى مرْمى الرّصاص، قناصةُ العدوّ لن تتركَ لنا المجالَ أن ننتقِل للجهةِ الأخرى، فاختبأنا خلفَ صخرةٍ كبيرةٍ نتحينُ الفرصةَ للانقضاضِ..

رفيقي فهد يمسكُ بذراعي انتظر، لا تتحرك..!

هدأ صوتُ الرّصاص، ورفعتُ رأسي؛ لأتحقّق من بقيةِ الرفاقِ..

آآه

فهد يصرخُ: خالد.

نافورةٌ من الدماءِ تتدفقُ من رأسِ خالدٍ وفهد يلقي بسلاحهِ ويمزقُ جزءًا من قميصهِ ليُضمد جراحَ صديقهِ خالد بيدٍ مرتعشةٍ..!

لا عليكَ يا خالد، بسِيطة سأحاولُ أن أتراجَع بكَ للخلفِ.

كانَ فهد في موقفٍ صعبٍ، إذْ حينَ يرفعُ رأسهُ ينهمرُ سيلٌ من الرّصاصِ نحوهما منْ قناصةٍ فوقَ جبلٍ مقابلٍ.

اتصلَ فهد عبرَ جهازٍ معهُ يطلبُ نجدتهُ وإسعافِ خالد، وفي هذهِ الأثناء اكتشفتْ إحدى المرْوحيات وجودَ القناصة، فأطلقتْ عليهمْ وابلًا من الرصاصِ حتى لمْ يعدْ لهم أي حركة..!

تقدمتْ فرقةٌ إسعافيةٌ لنقلِ خالد الذي استشهدَ على صدرِ رفيقهِ فهد، حملهُ معهم وأخذَ متعلقاتهِ الشخصيةِ وضمْنها ورقتهُ التي استودعهُ إياها وجدها داخلَ مفكرةِ يومياتهِ.

بكى فهدٌ صديقهُ خالدًا بكاءً مريرًا، وعندَ نقلِ خالد لقريتهِ عبرَ مروحيةٍ تابعةٍ للجيشِ رافقهُ فهد، وأكملَ كتابةَ الصفحةِ الأخيرةِ من مذكراتهِ قبلَ أن يضعها في يدِ أحدِ أعمامهِ مع متعلقاتهِ الشخصيةِ، ويعودَ لثكنته.

كتب فهد:

ص ١٠٥ كنتَ بطلًا يا خالد، استبسلتَ في الدفاعِ عن وطنكَ، وأسقيتَ أرضكَ بدمكَ الزكيّ.

لنْ أنساكَ يا خالد، طبتَ حيًا وميّتًا.

رفيقك.

الغيرة

أغمضت عينيها ومالت برأسها للخلف, وتركت جسدها يهتز ويتحرك بلا مبالاة باهتزاز السيارة وهي تنهب الطريق في رحلة صمت لا يقطعها إلا نشيج تُصدره بين الفينة والفينة, وهي تغادر مسقط رأسها تاركة خلفها أم تسكب الدموع منذ أسبوع حزنا على رحيل ابنتها مع زوجها ناصر وأطفالها إلى مدينته ومقر عمله التي تبعد عنهم آلاف الكيلومترات, وتسكن فيها والدة ناصر وإخوته بعد انفصالها عن والده الذي تزوج بأخرى وتركهم مع والدتهم..

مرّ ما يشبه الشريط السينمائي أمام عينيها المغلقة ! رأت نفسها وهي ذات العشرين ربيعا بقوامها الممشوق, وعينيها الساحرتين, وملامحها الجميلة, وحركاتها الرشيقة الفاتنة .. تذكرت حين تمازح رفيقتها المقربة بعدد المتقدمين لها طلبا للزواج وفارس أحلامها المنتظر لم يأتي بعد ! تذكرت كيف أن والدتها حين تقدم لها زوجها ناصر الجالس بجوارها الآن لم تتقبله وكانت مترددة في تشجيعها للقبول به !

تذكرت كيف تقدم لها ناصر ووالدته ولم يحدثها عن والده قط !

تتساءل بينها وبينها: هل فعلا قلب المرء دليله؟

هل والدتها مُحقة حين أبدت مخاوفها وترددت كثيرا في إعلان موافقتها لرأي ابنتها؟

كيف قبلت ؟

سؤال موغل في المرارة حين تطرحه على نفسها والألم يحطّ رحاله, وهي تتمنى لو كان والدها حيّا لكفاها عناء السؤال..

تسترق نظرة إلى وجه ناصر, ملامحه جامدة لا يبدو عليه أي نوع من التأثر لحزنها, مُمسكا المِقود بعصبية تبدو ظاهرة في حركة أصابعه ونظراته مركزة تماما على طريق حالك السواد, تراقبه وهي تعلم يقينا أن جبال من الهموم ستعود لتجثم على صدرها حين تبدأ سلسلة المشاكل في التصاعد والامتداد, لتحيل هدوئها النفسي إلى بركان غضب تحاول أن تخمده بكل ما أوتيت من قوة، تتذكر كيف لشقيقته هاجر تفتعل المشاكل لغيرتها الشديدة من أسماء !

آآآآه يا هاجر ليتك تكفّين عن إضرام نـار الغـيرة في صـدرك فما أنا إلا زوجة لأخيك يهمها أن تحيا مع أطفالها بسعادة .. عادت أسماء لتغوص في ذاتها وتستعرض بشيء مـن حـنين فترة مـا قبـل زواجهـا, وكيـف كانـت الفتـاة المدللـة حتـى دخلت معترك الحياة الزوجية مـع هـذا الشـخص ! وكيـف كانت بداية الحياة في كنفه متفاوتـة الأحـوال مـا بـين هـدوء واستقرار, وبين خلافات لا يظهر أن لهـا نهايـة .. لم يقطـع حبل أفكارهـا سـوى خـلاف نشـب بـين أطفالهـا في المقعـد الخلفي بالسيارة, والتفتـت لـترى مـا يحـدث وتطلـب مـن الصغار الكف عن الشجار وبينما هي تتحـدث إلـيهم جـاء صوت زوجها مؤنبا لها

- أنت لم تحسني تربيتهم !

- عادت لتنظر إليه في دهشة ماذا تقول؟

- وإذا لم أحسن تربيتهم أنا لِمَ لمْ تربّهم أنت؟

رد بطريقة مستفزة

- هذا دورِكِ كأم

- وما دورك أنت كأب؟

- تململ في مقعده وزاد من سرعة السيارة وهو يقول: دعي هذه الساعات تمر بهدوء

- عادت للصمت بعد أن سكت أطفالها في حالة أشبه ما يكون ترقبا لما قد يحدث تكرارا..

- يا لهذا الرجل الغريب أمضت معه أكثر من ست سنوات ولم تكتشف غموضه وسر تقلباته العجيبة !

أحيانا يعاملها ملكة متوجة على قلبه, وأحيانا يحيل حياتها إلى جحيم لا يطاق ..

هي امرأة جميلة متعلمة تعلمت الوقار والتواضع في حضوره, ولكنه يسعى دائما لأن يشعرها بالنقص, فكثيرا ما انتقد ذوقها في تصفيف شعرها, او اختيار ملابسها, وحتى طريقتها في الكلام ! إذ يتعمد أن يصحح لها بكل فضاضة وكأنه يزدري شهادتها الجامعية ..

أبقت عينيها مركزة على الطريق, والسيارة تنهبه بكل سرعة, والأفكار المتلاحقة لا تتوقف عن الاستعراض القسري أمام عقلها حتى انتبهت إلى أن زوجها هدّأ من سرعة السيارة إيذانا بالوصول بعد رحلة استمرت ست ساعات متصلة لتصل إلى سور امتدّ على مسافة طويلة

يضـمّ فيلـتين متجـاورتين, إحـداهما لوالدتـه وإخوتـه, والأخرى له ولزوجته وأطفاله ..

ترجّلت أسماء تحمل حقيبة صغيرة في يدها, ووقفـت أمـام باب السيارة في انتظار أن ينـزل طفليهـا ثـم سـارت خلـف زوجها نحو الباب، وقف أمامها وقال:

- والدتي تنتظرنا ضعي أغراضك سـنعود للسـلام علـيهم, ولم ينتظر إجابتها ! ودلف للمنزل ولحقت به بعـد أن دخـل الصغار وأغلقت الباب ..

في منزل والدتـه كـان اللقـاء لطيفـا ومبهجـا مـن قبـل الأم وبعض الأخوات, بينما شقيقته الصغرى (هاجر) لم يكـن يبدو عليها أي نوع مـن الفـرح إذ اعتـادت أن تسـتقبل كـل المشاعر بالبرود القاتل ! وهذا أمر اعتادته أسمـاء منهـا فمـا عاد يلفتها هذا البرود ..

هاجر تشـترك مـع شـقيقها ناصـر في كـثير مـن الصـفات, اللامبالاة, والعصبية, والتقليل من شـأن الآخـر, وتفسـير الأمور عكس مـا تبـدو عليـه, ممـا جعـل أسمـاء تتحاشـى الاحتكاك بها إلا في أضيق الحدود منعا للمشاكل, لا سـيما وأنها تعرف زوجها جيدا لن ينصفها أبدا, بل سيقف وبكل

صلافة مع شقيقته حتى وهو يثق أن زوجته قلّما تخطيء أو تتعمد الخطأ ! فشخصية ناصر شبه عدوانية بعد أن عايش عن قرب خلافات والديه وانفصالهما, بعد حياة لم تستقر شهرا واحدا ! انتهت بعده بفراق نهائي عاش على إثره منطويا على نفسه, عصبيا نزقا سيء الظن بمن يخالفه, فانعكس كل ذلك على حياته مع زوجته فلا يكاد يمر أسبوع هادىء إلا وتتبعه عاصفة من الهيجان والتشكيك, لتستمر حياة أسماء معه متأرجحة دائما ! حتى وهي تنجب طفلين جميلين إلا أن ذلك لم يغير في طباعه شيئا, وتزداد الحالة سوءا حين تتدخل أخته هاجر في الصغيرة والكبيرة فتشتعل الخلافات .. هاجر ذات الثانية والعشرين ربيعا رغم أنها الصغيرة بين شقيقاتها إلا أنها المتحكمة في العائلة، حتى تمدّد هذا التسلط لتبسطه على بيت شقيقها ناصر فأصبحت تلعب دور الآمرة الناهية ! أصبح تدخلها سافرا جريئا في كل تفاصيل حياة شقيقها وزوجته, فتكررت المواقف العاصفة بينهما بتدخل مباشر من هاجر !

رغم أن والدته كانت ترفض هذا التدخل وتقوم بتأنيب هاجر وكبح جماح تدخلها, إلا أن هاجر لا تعبأ بالنصح أو التوجيه حتى أصبحت حياة أسماء على صفيح ساخن, فلا تكاد تخبو نار مشكلة حتى تشتعل أخرى !

طباع ناصر وهاجر متشابهة فكلاهما عصبي المزاج غيور, لا يرى أحد أفضل منه، وذات مساء كانت أسماء تجلس مع زوجها يحتسيان القهوة في هدوء, وإذ بطفلهما يقتحم عليهما جلستهما في صالة المنزل قادما من منزل جدته وهو يبكي ! تلقفته والدته تسأله عمّا حدث فأخبرها أن عمته هاجر أنّبته لسوء اختياره لملابسه على حد تعبيره !

التفتت أسماء إلى زوجها الذي جلس يراقب الموقف وقالت له بهدوء: إلى متى وأسماء تتدخل في شؤوني؟ ولِم تتحدث مع الطفل بهذه القسوة؟

فقاطعها قائلا وبكل برود: هاجر معها حق في رأيها أهذه ملابس أو ألوان يلبسها طفل ! أنت لا تحسني اختيار ملابس أطفالك !

ثارت ثائرة أسماء وأطلقت للسانها العنان في هجوم كاسح على قلة ذوق هاجر, وتدخلها الممجوج فيما لا يعنيها, وانحت باللائمة على الماثل أمامها حين يساندها في الخطأ دون أي اعتبار لما سيترتب عليه ..

نهض واقفا وبكل غرور التفت إليها وقال: استبدلي محاضرتك هذه بتعلم كيف تختاري ملابس أطفالك وصفق الباب خلفه وخرج !

ولأول مرة تخرج أسماء عن وقارها وحلمها وتنهض وترفع هاتفها وتتصل بهاجر وقبل أن تسمع ردها تحدثت إليها بعصبية قائلة: إلى متى يا هاجر وأنت تتعمدين استفزازي وتتدخلين في شؤون عائلتي؟

ما شأنكِ في ملابس أطفالي؟

ألا تخجلين من نفسكِ؟

دعيني وشأني.. ولم تكمل جملتها إلا وهاجر قد أغلقت الهاتف !

ألقت أسماء بنفسها على أقرب أريكة لها وقد أنهكها الانفعال, إذ لم تعتد أن تبدأ بالهجوم, وماهي إلا لحظات حتى سمعت صوت الباب يفتح بعنف ويدخل ناصر وقد

احمر وجهه غضبا, فقد كان هناك حيث هاجر التي لم تتوانَ لحظة في إشعال فتيل الخلاف, وقد جاءتها فرصة على طبق من ذهب ..

منذ متى والسيدة أسماء تتحدث مع أهلي بهذه الجرأة وتهاجمهم؟

ألقى السؤال وهو ينظر إليها والشرر يتطاير من عينيه نهضت من مكانها وتوجهت إليه بكل ثقة وقالت له: عفوا أنا لم أتحدث إلا لمن أخطأت في حقي وحق طفلي لقد تجاوزت هاجر كل حدود اللباقة والأدب لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا تدخلت بها إلى متى؟ ولكنه تجاهل هدوئها وتساؤلها المنطقي وأخذ يزبد ويرعد, وكأن أسماء مجرمة ولكنها استمرت في الهدوء مما جعله يقترب منها ويرفع يده ويهوي بها على وجهها صفعة أسقطتها أرضا وأسقطت ما تبقى له من تقدير ومحبة في قلبها ..

وخرج بعد أن ركل مقعدا كان أمامه، أخذت أسماء تدور حول نفسها وقد أمسكت بخدها غير مصدقة ما حدث وتلفّتت تبحث عن صغارها لتطمئن أن لا يكونا قد شاهدا ما حدث، تهاوت على مقعدها وتدحرجت من عينيها

دمعات تشبه اللؤلؤ فلم تحاول أن تمنعها بل جعلتها متنفس لها لتعود لتقييم الموقف بهدوء, ولكن تأبى كرامتها قبول تصرف ناصر الأرعن, فتقرر أن تضع حدّا لكل هذا, ونهضت تغسل وجهها, وفي قلبها حرقة حتى حلّ المساء ليعود ناصر من منزل أهله الذي جعله ملجأ له بعد كل خلاف, عاد ليمارس عنجهيته وصلفه يتأفف ويركل كل ما أمامه, ويسب وشتم الصغار بكل بذاءة, وحين استقر جالسا وقفت أمامه بكل هدوء وقالت له: هيّا أعدني إلى بيت أهلي !

- رفع بصره إليها وقد لوى فمه بازدراء وسألها ألا ترغبين الطلاق أيضا؟

فردت عليه بثقة: ولِمَ لا فالحياة هنا ما عادت تطاق مع إنسان لا يقدرها ..

- نهض واقفا وهو يريد أن يخيفها, وقال لا بأس الحقي بي أنا بالسيارة, لم تنتظر حملت حقيبتها ودفعت بحقيبة صغارها, وكانت قد استعدت لهذه اللحظة ولكنها لم تتوقع أن يوافقها ..

وركبت بجانبه وانطلقت بهما السيارة التي لم يُسمع فيها سوى أحاديث الصغار, فالصمت سيد الموقف ..

عادت أسماء لمنزل والدتها, وعاد ناصر إلى مدينته وأهله ووظيفته, لتمضي بهما الحياة فلا هو اتصل بها ولا هي فكرت أن تتواصل معه فالجرح غائر والألم متمكن..

وذات صباح وبينما هي تتحدث مع والدتها إذا بطارق يطرق الباب, ونهضت لتفتحه فإذا بأحدهم يسلّم لها مظروفا يحمل اسمها فسارعت لفتحه, وإذ به إشعار من المحكمة بطلاقها !

شعرت أسماء بقشعريرة اهتز لها بدنها, ودارت حول نفسها, وتعرّق وجهها فلم تتوقع أن تصل به الحماقة إلى هذا !

هل كتب عليها أن تتحمل غيرته وغيرة شقيقته؟

ما مصير الصغار؟

وتقدمت نحو والدتها وبهدوء قالت: ورقة طلاقي من ناصر, كانت تراقب تعابير وجه والدتها ففوجئت بانفراجها وتهللها ! رفعت يديها للسماء وقالت: الحمد لله كنت على يقين أن هذا سيحدث منذ أكثر من ثلاث سنوات, سلوك

ناصر سيء ولا يمكن التنبؤ بما يفعل, فهو يغار منك لهـذا لا يتردد أبدا من الإساءة لك, وتعنيفك والتقليل مـن شـأنك، لا بأس يا ابـنتي لـديك طفلـين جمـيلين ولله الحمـد ولسـتِ بحاجته أبدا، ردت عليها أسماء وقد أطرقت برأسها: نعم يـا أمي ولكن ما هو ذنب الصغار وما مصيرهم؟

مدّت الأم يدها وربتت على كتف أسمـاء وقالـت لا تخـافي الله كريم, ونحن هنا لن نتخلى عنهم, تنهدت أسماء بعمـق ونهضـت بعـد أن اسـتأذنت والـدتها و دخلـت إلى غرفتهـا وأخذت قلما وخطت به:

(يفعلها الكبار ويقع فيها الصغار)

سامحوني صغاري فلم أكن أتمنـى أن تصـل الأمـور إلى هـذا الحـد ولكنهـا ... الغـيرة ... وألقـت أسمـاء نفسـها علـى سريرها وتركت نفسها للدموع .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
وأزهرت شجرة الليمون	٥
اكتفيت بأمي	١٨
غياب فعودة	٢٦
حلم سارة	٣٠
ذات الضفائر القرمزية	٣٤
انفصام	٤٢
مدائن الرماد	٤٩
نبض في قلبين	٦١
وأغلق الباب	٦٩
حياة	٧٤
امرأة ريفيّة	٨٦
نجم من ورق	٩١
مذَكرات شهيد	٩٤
الغيرة	١٠٩